بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب

كتاب نادر مما جادت به قريحة شيخ العربية وأديبها الأكبر أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

نادر فى وجوده ، ونادر فى مادته .

أما فى وجوده فقد كان مفقوداً تماما ولم يعثر على نسخة منه إلا منذ زمن قريب ، ويبدو أنه كان نادراً كذلك فى العهود القريبة من عهد المؤلف ، ذلك لأننا لا نرى له ذكرا — فيما عدا كتب الجاحظ نفسه — إلا فى عدد قليل جدا من المراجع .

ذكره ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ فى طبقاته أثناء ترجمة أبى الخطاب البهدلى فقال إنه أحد العرجان الذين ذكرهم الجاحظ فى كتابه[١] ، إلا أننا فى الواقع لانجد له ذكراً فيه ، وهذا أمر غريب ، لأنه إما أن تكون هذه الترجمة قد سقطت من الكتاب ، وإما أن يكون ابن المعتز لايملك نسخة منه وخمن تخميناً أن هذا الشاعر ما دام من العرجان فلابد أن يكون الجاحظ قد ضمنه ذكره .

ثم نرى بعد ذلك بعض النقول فى هامش الأصل لمعجم الشعراء للمرزبانى المتوفى ٣٨٤ هـ[٢] .

---

(١) إنظر طبقات الشعراء لابن المعتز ١٣٥ .

(٢) صفحتا ٣٦٠ ، ٣٩٥ .

وكذلك بعض النقول فى أمالى المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ [1] .

ثم يشير ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ إلى الكتاب حين يترجم للأسلع الأعرجى فى الإصابة ، وهو يأخذ على الحافظ مغلطاى بن قليج البكجرى الرومى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ اقتصاره فى التعريف بالأسلع الأعرجى على ما ذكره الجاحظ عنه فى كتابه البرصان .

هذه هى كل النقول التى عثرنا عليها فيما اطلعنا عليه من المراجع ، وهى فى الواقع قليلة جداً إذا قيست بما يتضمنه الكتاب من أخبار وتراجم لعدد كبير من أشراف العرب وعلمائها من الفقهاء والمحدثين والأطباء والمغنيين والأدباء والشعراء وغيرهم ، ولهذا فإننا نعتقد أن ذلك كان يرجع إلى ندرة وجود الكتاب بين أيدى العلماء حتى فى العهد القديم .

وترجع هذه الندرة فيما نظن إلى أن الكتاب كان يعد من الكتب النفيسة الطريفة التى كان يحرص من يقتنيها على الاحتفاظ بها لنفسه فلا يسمح بإعارتها أو نسخها ، وذلك مثلما حدث فى أيامنا هذه ، إذ أن نسخة الكتاب كانت مجلدة مع كتابين آخرين للجاحظ هما الوكلاء والصوالجة، لكن قيم المكتبة رفض أن يسمح بتصوير المجلدة جميعها واقتصر إذنه على الكتاب الأول .

أو ربما كان عنوان الكتاب موهما أنه من كتب الطب التى تصف أمراض هؤلاء الناس ثم تصف لهم بعض العلاجات القليلة الأهمية ، وعناوين الكتب كثيرا مالا تكشف عما تتضمنه فينصرف الناس عنها .

وهكذا ضاعت كتب كثيرة كانت تتصف بتلك الصفات إما لأن أصحابها بلغ من حبهم لها أن ضنوا بها على كل يد حتى اندثرت وطوتها يد الزمان ومن الحب ما قتل ، وإما جنت عليها عناوينها الموهمة .

---

(١) انظر صفحتى ١٨٦ ، ٢٤٤ من الجزء الأول .

على أى حال لقد شاء الله لهذا الكتاب ألا تغتاله يد الزمان ، فتبقى نسخة فريدة منه فى مكتبة سحيقة بالمغرب الأقصى ، موئل العروبة والحافظ على تراثها ، وأملنا الباقى فى أن يكون قد احتفظ لنا بجملة من هذا التراث الذى نسمع اسمه ولا نرى رسمه . ولندع العالم المغربى الدكتور عبد الهادى التازى يقص علينا نبأ العثور على هذه النسخة قائلا :

« لقد كتب لهذا المؤلف القيم ألا تضمه رفوف خزانة فى الشرق ، ولكن هنا ببلاد المغرب فى « بزو » بين تادلة والسراغنة جنوب شرقى الدار البيضاء حيث الزاوية العياشية ، وكان علماؤنا الأفذاذ أمثال الشيخ البحاثة السيد المختار السوسى قد وقفوا على هذا الكتاب بالزاوية المذكورة منذ ٢٦ من ذى الحجة عام ١٣٥٥ هـ .

ثم يقول الدكتور التازى :

« ولقد قدر للجاحظ ألا يخرج من الزاوية العياشية إلا عندما حل ضيفاً على المغرب حضرة الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات بالجامعة العربية فلقد وضع له برنامج لزيارة المكاتب العامة والخاصة سواء منها التى تتبع وزارة التربية الوطنية أووزارة الأوقاف ، وكان من تصميم الرحلة زيارة « بزو » حسب إشارة الأستاذ محمد الفاسى رئيس الجامعة المغربية .

ووصل الدكتور صلاح الدين وبمعيته الأستاذ إبراهيم الكتانى المشرف على قسم المخطوطات ... إن الشيخ المختار يتحدث عن أثر للجاحظ هنا ، فهل ماتزال الخزانة محتفظة به رغم أولئك السماسرة الذين قصدوها على عهد الحماية ممن عرفوا بانتهاكهم لحرمة الخزائن ؟ نعم ، لقد سلم الكتاب من عادية أولئك ، وهاهو الآن يجد طريقه نحو المكاتب فى المشرق والمغرب[1] » .

وحقا لقد كان للدكتور المنجد فضل إحضار نسخة الكتاب مصورة على

---

(١) انظر مقال الدكتور التازى عن الكتاب فى مجلة دعوة الحق المغربية العدد التاسع السنة الثانية ، يونيه ١٩٥٩ ، ذو الحجة ١٣٧٨ ، صفحات ٦٨ — ٧٠ .

الميكروفيلم وأودعها خزانة معهد المخطوطات ، كما أودعت نسخة مصورة منه فى الخزانة العامة بالرباط برقم ٨٧ ، وكان ذلك منذ ما يقرب من أربعة عشر عاما ، وفى خلال هذه الفترة صور الكتاب لعدد كبير من علمائنا فى الشرق والغرب ، لكن لم يفرغ أحد منهم حتى الآن من تحقيقه ونشره ، وغاية ما فى الأمر أن العلامة الشيخ حمد الجاسر نشر مقدمة الكتاب فى مجلته العرب الغراء[1] ، وذلك لتعريف قرائه بأهمية هذا الأثر النفيس ، وحث العلماء على الاهتمام به وبذل الجهد لنشره .

موضوع الكتاب :

عقد الجاحظ مؤلفه هذا للحديث عن ذوى العاهات من أشراف العرب ومشاهيرهم ، وقد اتخذ من كتاب فى هذا الموضوع للهيثم بن عدى[2] تكأة لتأليف كتابه هذا .

أما كتاب الهيثم — وهو وارد هنا فى نهاية كتاب الجاحظ — فهو كتاب بسيط لا يعدو أن يكون مجرد سرد لأسماء بعض الأشراف من ذوى العاهات ، ولا ندري أكان هذا هو الكتاب بأكمله أم تلخيصاً له ، وعلى أى حال فإن بعض الناس يقول : إن قصد الهيثم من كتابه هذا كان الحط من أقدار هؤلاء الأشراف والتهوين من أمرهم بذكر مثالبهم ، أما الدافع له على ذلك فهو ما كان يلقاه من حط لشأنه هو لأنه كان مغموز النسب دعى الأصل ، وذلك ما صرح به أبو نواس فى قوله :

إذا نسبت عديا فى بنى ثعل ... فقدم الدال قبل العين فى النسب

---

(١) انظر الجزء الثانى عشر ، السنة الثانية — جمادى الآخرة ١٣٨٨ هـ (أيلول ١٩٦٨ م)

(٢) الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الشعلى الطائى النجدى الكوفى ، مؤرخ عالم بالأدب والنسب ، اختص بمجالسة المنصور والمهدى والهادى والرشيد وروى عنهم ، وكان يتعرض لمعرفة أصول الناس ونقل أخبارهم ، وقد أورد فى بعض كتبه معايبهم وأظهرها فكرهه الناس لذلك ووضعوا فى نسبه ، وقد حبس عدة سنين لأنه ذكر العباس بن عبد المطلب بشىء ، له من الكتب : بيوتات العرب ، وبيوتات قريش ، والمثالب الكبير ، والمثالب الصغير ، ونسب طىء ، ونزول العرب خراسان وغير ذلك ، توفى سنة ٢٠٧ هـ ، انظر معجم الأدباء ، الفهرست ، لسان الميزان ٦/٢٠٩ .

وسواء أكان ذلك هو ما هدف إليه فعلا ، أم كان على الأقل يهدف إلى الطرافة والإغراب وبعث الدهشة فى النفس حين يعلم من لم يكن يعلم أن فلاناً من هؤلاء الأشراف المشاهير كان مصاباً بعاهة مـا ، سواء أكان ذلك قصده أم ذاك ، فإن الجاحظ لا يوافقه على ذلك ولا يرضاه له حظاً فى حياته ولا لولده بعد مماته .

وقبل أن يسوق الجاحظ رأيه ، ينبه قارئه فى مقدمة رائعة إلى الكيفية الصحيحة التى يقبل بها الأشياء أو يرفضها بصرف النظر عن ما يقال فى الدافع إليها فإن ذلك قد يلهيه عن إصدار الحكم الصحيح لهـا أو عليها ، ولعله بذلك يشير إلى أصل الهيثم بن عدى ونسبه وما قيل عنهما ، وهو لا يحب أن يشغل القارئ نفسه بهذا الأمر الذى يدخل فى باب الفضول ، ويغفل بسببه عن أن ينظر النظرة الموضوعية إلى كتابه هذا وجدواه بالصورة التى ألف بها .

ثم يشرح الجاحظ فكرة تأليف كتاب كهذا بالكيفية السليمة التى يرضاها فيقول :

« والعرج الأشراف ــ أبقاك الله ــ كثير ، والعمى الأشراف أكثر ، ولكن ما معناه فى أن أبا فلان كان أعمى إذا لم يكن إنما ذكر العرج والعمى ليجعل ذلك سبباً إلى قصص فى أولئك العرجان ، وإلى فوائد أخبار فى أولئك العميان ، وإلى أن جماعة منهم كانوا يبلغون مع العرج ما لا يبلغه عامة الأصحاء ومع العمى يدركون مالا يدركه أكثر البصراء » .

ثم يبين الطريقة التى ينبغي أن يعالج بها الحديث عن هذه الأمور الشخصية البحتة ، وذلك إذا استطعنا أن نستخلص منها أدباً نستفيده أو عظة نعتبر بها ، فيقول :

« ولو ذكرنا حفظك الله أن ممن سقى بطنه عثمان بن أبى العاص . . . وفلان وفلان ثم لم نذكر حسن عزائهم ونوادر كلامهم عند نزول تلك الحوادث ، وعند توقع الفرج من تلك المضايق ، وأى شئ كرهوا من

أصناف العلاج وحرموه ، وأى شئ استجازوه واستحلوه ، والذى رووا من الأحاديث فى ذلك الداء أو من الروايات فى ذلك الدواء ، وكيف كانت تعزية العائد وجواب المعود ، وكيف كان دعاؤهم ، وبأى ضرب من الكلام كان ابتهالهم ، فإن ذلك عظة لمن سمعه ، وأدب لمن وعاه ، وصلاح لمن استعمله .

فمن لم يذكر هذه العلل لذكر هذه الفوائد ، لم يكن ذكره لزمانة قوم أشراف بالمحمود ، ولا تنويهه قوماً مستورين بأدواء بالمرضى » .

وهكذا أوضح الجاحظ النهج السليم الذى اختطه لتأليف كتابه وهو :

أولا : أن هؤلاء الناس الذين أصيبوا بعاهة مقعدة كان من الممكن أن تخلد بهم إلى الأرض ، سموا بأنفسهم عن ذلك ولم تعقهم عاهاتهم قط عن أن يكونوا قواداً عظماء أو حكاماً سادة أو علماء فى كل فن ، وقد أوضح ذلك وأبانه بالأمثلة العديدة ، وهو بهذا يكون أول من أبرز نظرية التعويض الذى يبثها الله فى نفوس هؤلاء ، قبل أن يكتشفها العلم النفسى الحديث بسنوات وسنوات .

ثانياً : أن هؤلاء قالوا فى محنهم أدباً كثيراً ، فمنهم الصابر ومنهم الجازع ، كما قالوا فى تغلبهم على ضعفهم أدباً أكثر ، وهو جدير بالتسجيل لأنه أدب نفسى صادق يصدر عن نفوس حساسة مرهفة ، وقد سجله الجاحظ وأتعب نفسه فى جمعه وكان يمكن أن يندثر ولا تبقى منه إلا نتف فى بطون الكتب لا رابط لها ولا مدلول .

ولقد تناول الجاحظ فى كتابه بعد ذلك كل العلل التى يمكن أن تصيب الإنسان من رأسه حتى أخمص قدميه ، لكنه لم يكتف بهذا بل إنه ليعطينا شلالات من المعرفة وفيوضاً من العلم بكل ما يتصل بذلك أو يمت إليه ، يتحدث عن هـذه العلل فى الحيوان والنبـات ، ويوشح ذلك باستطرادات لغوية وفوائد طبية وملاحظات ذهنية غاية فى الذكاء والفطنة

ودقة الملاحظة ، كل ذلك لتكتمل أمامك صورة من أدب الإنسان العربى ، الذى كان رغم مرضه أحياناً شريفاً كل الشرف، أبياً غاية الإباء، عظيما رائع العظمة .

ولقد وصل الجاحظ بكتابه هذا إلى قمة سامية من الأدب الإنسانى الرفيع . لم يدانه فيها من طرقوا هذه الناحية فى الإنسان ، سواء ممن عاصروه من أمثال الهيثم بن عدى أو محمد بن حبيب فى كتابه المحبر أو ابن قتيبة فى المعارف ، أو ممن أتوا بعده كصلاح الدين الصفدى فى كتابيه نكت الهميان فى نكت العميان والشعور بالعور [1] .

نسخة الكتاب :

تقع هذه النسخة الوحيدة للكتاب فى مائتين وأربع عشرة صحيفة ، كل صحيفة مرقمة ترقيما حديثاً على ما يبدو فى جانبها بالأرقام العربية المستعملة فى المغرب .

والصفحة الأولى منه تحمل عنوان الكتاب وعنوان أخويه اللذين فصلا عنه ، ثم تأتى عدة تمليكات ، وصورتها كلها كما يلى :

كتاب البرصان والعرجان والعميان
والحولان
وكتاب الوكلا ... كتاب الصوالجة
تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تميم بن المعز

كتبت ولو كتبت بقدر شوقى ... لأفنيت القراطس والمدادا
ولكنى اقتصرت على سلام ... يذكر لى الأخلة والودادا

أما التمليكات فيأتى أولها فى أعلى الصفحة قبل العنوان ، ونصه :

---

(١) طبع الكتاب الأول بتحقيق شيخ العروبة أحمد زكى باشا سنة ١٩١٠ م ، أما الثانى فما يزال مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة بمعهد المخطوطات تحت رقم ٢٩٣ تاريخ .

لإبراهيم بن عمار بن أحمد ، ثم يأتى الثانى بجوار اسم المؤلف ونصه : ثم لإبراهيم بن عبيد الله بن محمد . . . وبعد بيتى الشعر تمليكات أخرى نصها : ثم لمروان بن عيسى بن يحيى . . . يثق بالله ويتوكل عليه عبده . . . عبد الله ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى . . . ثم ساقته المقادير للفقير إلى عفو الله تعالى أحمد بن . . . الشبلى لطف الله به .

وإلى جوار ذلك على يمين الصفحة يرد ما نصه : ملكاً لمحمد بن على اشتراه بوقية ونصف .

وفى نهاية الصفحة خمسة أسطر لا علاقة لها بالكتاب وهى على ما يبدو وصفة لطرد الحيات ونحوها عن حظائر الخراف .

وصفحات الكتاب فى كل صفحة تسعة عشر سطراً ، وخطها مغربى واضح ، وكثير من الكلمات مضبوط بالشكل ، وعلى هوامشها كلمات يسيرة يبدو أنها من استدراك بعض العلماء . والنسخة فى جملتها جيدة إلا أن فيها الكثير من التحريف والسقط مما أشرنا إليه فى هوامش التحقيق .

على أن الأهم من ذلك أنه قد حدث خطأ فى ترتيب أوراقها ، ثم رقمت خطأ بناء على هذا الترتيب ، وهذا ما دعانا إلى القول بأنها رقمت حديثاً .

أما بيان هذا الخطأ فهو كما يلى :

١ — صفحة ٨٠ تكملة الكلام فيها ليس من الصفحة التى بعدها بل من صفحة ١٤١ .

٢ — يسير الكلام بعد ذلك متصلا حتى آخر صفحة ١٥٨ .

٣ — يعود الكلام بعد هذه الصفحة فيكمل من صفحة ٨١ إلى آخر ص ١٤٠ ، ثم يستكمل بعد ذلك من صفحة ١٥٩ حتى آخر المخطوطة وقد أرفقنا بهذا صورة بالزنكغراف للصفحات التى حدث فيها الخطأ .

ينتهى كتاب البرصان فى صفحة ٢١٢ ، ثم يأتى كتاب الهيثم بن عدى فى الصفحتين ٢١٣ ، ٢١٤ ، وقد نشرناه فى موضعه فى نهاية الكتاب ،

ثم يلى بعد ذلك تمليك نصه : ملكهم عبيد الله تعالى الحسن بن على الجلاوى ثم اليكليزى ودهم لله لسيد الصغير نفعنا . . . وبركات أجداد . . .) .

تحقيق الكتاب

لقد صاحب العثور على نسخة الكتاب المخطوطة أوائل عام ١٩٥٩ بدء عملى فى معهد المخطوطات ، ولقد كان اكتشاف هذه المخطوطة شيئاً هاماً ومثيراً آنذاك ، وحدث أن تسلمت أمانة أفلام مخطوطات المعهد بعد ذلك بنحو عامين فرأيت الفيلم الخاص بذلك الكتاب يطلبه أكثر من باحث وعالم للاطلاع عليه . وحاولت أنا أن أطلع عليه لاستكناه كنهه ، ولكننى كففت عن ذلك بعد محاولة أو اثنتين وعللت نفسى وقتئذ أن الكتاب لابد أن يطبع بعدعام أو اثنين وسوف يكفينا ذلك مشقة الاطلاع عليه مخطوطاً ، ومرت الأعوام . وحدث بعد أن نلت درجة الماجستير عام ١٩٦٩ أن بحثت عن موضوع صالح لإعداده رسالة لنيل درجة الدكتوراه فخطر ببالى هذا الكتاب ، فأحضرته وبدأت فى قراءته قراءة مستأنية فاحصة ، فاقتنعت بصلاحيته واعتبرت ذلك فرصة لطبع الكتاب بعد أن طال العهد به ولم يطبع ، لكن فكرتى فى هذا الصدد لم تلق ترحيباً لدى الأساتذة ككل الكتب ذات المخطوطة الواحدة ، فصرفت النظر عنه وسجلت بحثى فى موضوع آخر .

غير أن فكرة تحقيق الكتاب فى حد ذاته عادت تلح على خاطرى بقوة ، ولم أجد مفراً من الاستجابة لها آخر الأمر فنسخت الكتاب وبذلت جهداً فى ترتيب صفحاته المضطربة .

أما التحقيق فقد بذلت فيه من الجهد ما الله وحده عالم به ، والمهتمين بالمخطوطات وتحقيقها يدركون ما فى تحقيق المخطوطات ذات الأصل الواحد من الغرر والمزالق التى تزل بها قدم الحريص الواعى المتمكن ، وقد يهون الأمر إذا كان الكتاب ذا موضوع عام يجد له محققه من المراجع الكثير الذى يعوضه عن النسخة الواحدة ، فما بالك والنسخة ذات خط مغربى ، كثيرة التحريف والسقط ، ثم إن موضوع الكتاب موضوع فريد لا تجد له كثيراً من المراجع التى تأخذ بيدك فتهديك الطريق .

وكثيراً ما كدت أنصرف عن الكتاب أمام مشاكله التى لا حصر لها والتى كنت أقف أمامها أقلب فيها نصاً من النصوص وأنا عاجز عن إدراك صحته ، فلا النسخة توضحه ، ولا المراجع تهدى إليه .

وبعد جهد شديد ، ومعاناة صابرة ، وبتوفيق من المولى القدير عز وجل الذى يكافئ المرء على قدر إخلاصه وجهده ، يمكننى الآن أن أقدم هذا النص مطمئناً إلى أنه أصبح فى الصورة الملائمة أو قريباً منها فلقد سلكت فى تحقيقه منهجاً حازماً التزمت فيه بما يلى :

١ ــ التدقيق فى كل لفظة والتحقق من صحتها قبل إثباتها ، وذلك بمعارضتها بما ورد فى المراجع إن وجدت أو ملاءمتها لسياق المعنى ، على أننى لم أبدل لفظة فى الكتاب ما لم تكن خطأ محضاً نحوياً أو لغوياً أو واضحة التحريف ، أما إذا كانت واضحة الحروف فإننى أثبتها كما هى مع الإشارة إلى اختلاف الرواية فى المراجع الأخرى ، ومع ذلك فمازالت هناك ألفاظ ونصوص لم أهتد فيها إلى وجه الصواب .

٢ ــ عرفت بالأعلام الواردة فى الكتاب إلا القليل الذى لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المراجع ، إما لأنه من غير المشاهير من معاصرى الجاحظ أو لأن فى الاسم تحريفاً لم أهتد إلى صحته ، والواقع أن كثيراً من الأسماء التى وردت فى النص فيها اختصار وخلط ، وقد صححت ذلك وأبنت عنه . على نحو ما يرى القارئ فى هوامش التحقيق .

٣ ــ بالإضافة إلى الجهد العادى الذى يقوم به المحقق فى تخريج الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والأبيات الشعرية والشواهد النثرية والتى بذلت فى تخريجها جهد الطاقة ، فلقد رأيت أن الكتاب شديد الصعوبة بالنسبة لعدد كبير من القراء ، ولقد أحس بذلك المؤلف نفسه حين يقول : « وأنا أعلم أن عامة من يقرأ كتابى هذا وسائر كتبى لا يعرف معانى هذه الأشعار ، ولا تفسير هذا الغريب ، ولكنى إن تكلفت ذلك ضعف

مقدار كل كتاب منه ، وإذا طال جداً ثقل ، فقد صرت كأنى إنما أكتبها للعلماء ، والله المعين » .

وحقاً فلقد كان الجاحظ فى إحاطته الشاملة بآداب العربية وتاريخها وأيامها ووقائعها يشير إشارات سريعة خاطفة تتضمن أحداثاً كبيرة أو وقائع عظمى .

ولقد رأيت أن من تكملة العمل وتمامه أن أذكر بعض هذه الوقائع وأشرح بعض تلك الأحداث مما فيه كشف لمآثر العرب ومفاخرها مما يبعث الإعجاب فى نفس القارئ ويدفعه إلى مواصلة القراءة وفهم النص .

وهذا ما لا أعده جزءاً واجباً من التحقيق ، بل هو تناول للنص من زاوية معينة تكشف عن ما فيه وما يحيط به من ظلال حية لا تفتقر إلى الروعة والجمال ، وهذا ما حرصت عليه دائماً فيما حققته من كتب .

وها هو ذا كتاب الجاحظ العظيم ، أقدمه للقارئ لأول مرة محققاً مضبوط النص مشروح الأحداث ، تاركاً لإنصافه تقدير ما بذلت فيه من جهد ، وما لاقيت من عناء .

وأجد لزاماً على فى ختام هذه الكلمة أن أذكر بالتقدير الأستاذ الكبير عبد السلام هارون الذى استفدت كثيراً من شروحه وتعليقاته على ما حققه من كتب شيخنا الجاحظ ، وقد أشرت إلى ذلك فى مواضع متعددة من الهوامش ، وكذلك إلى الأستاذ الكبير والصديق الكريم حسن كامل الصيرفى على ما قدمه ويقدمه لنا من وقته ومراجعه .

كما أتقدم بالشكر إلى صديقى وأخى الأستاذ محمد أحمد عاشور الذى أخذ منى هذا الكتاب وصمم على طبعه بعد أن كنت قد طويته حينما علمت أن كثيراً من محققينا الأفاضل ممن هم أقدر منى على تحقيق هذا النص وأرسخ قدماً فى المشرق والمغرب يعملون فيه .

وفقنا الله جميعاً إلى مافيه خير أمتنا الإسلامية وبعث أمجادها بمنه وكرمه.
فهو نعم الموفق والمعين .

محمد مرسى الخولى
معهد المخطوطات ـ المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم
جامعة الدول العربية

القاهرة فى { ١١ جمادى الأولى ١٣٩٢ هـ
٢١ يونيه ١٩٧٢ م

obeikandl.com

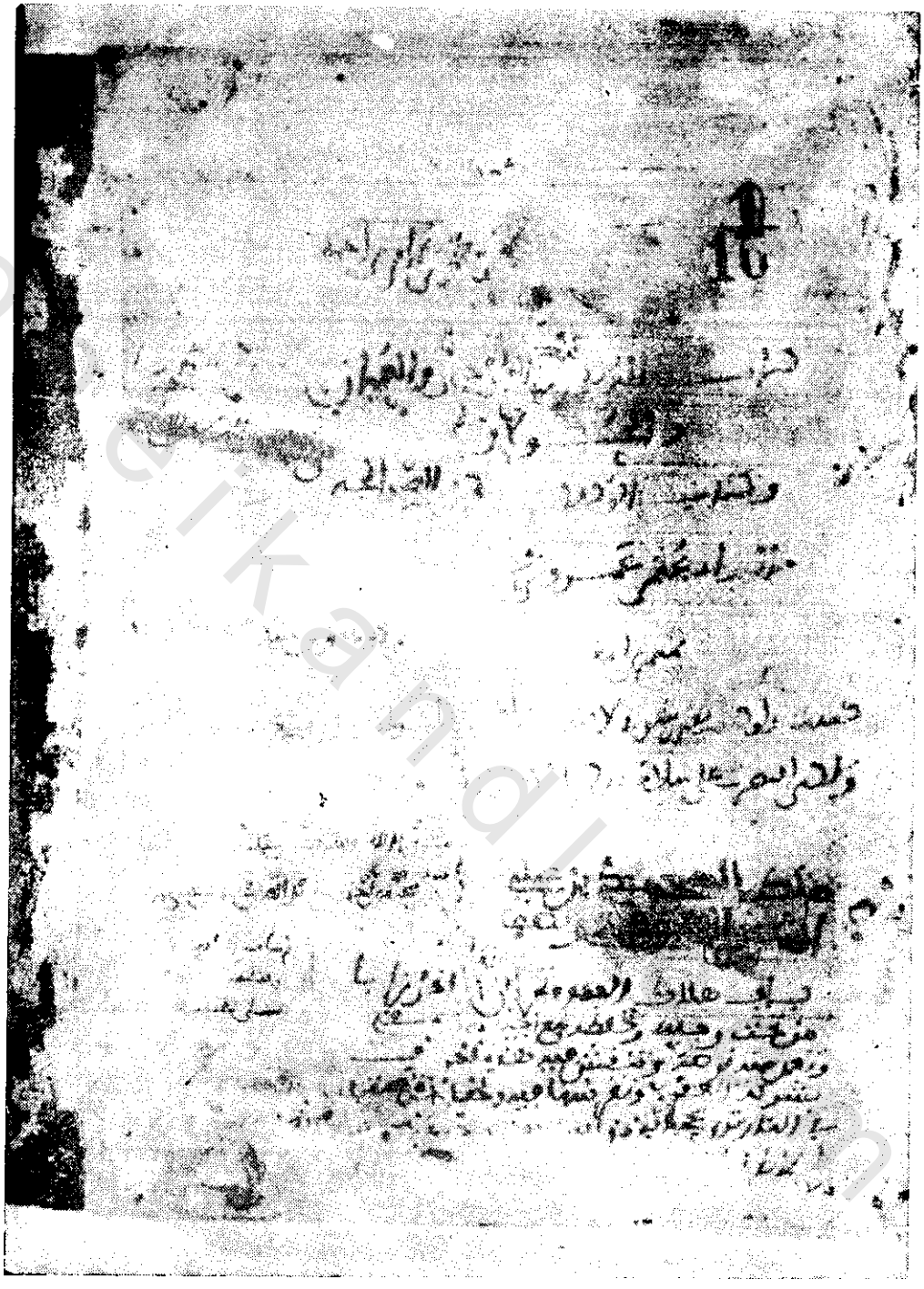

رقم (١)
صفحة العنوان من الاصل

رقم (٢)
الصفحة الأخيرة من كتاب الجاحظ ، والأولى من كتاب الهيثم بن عدى

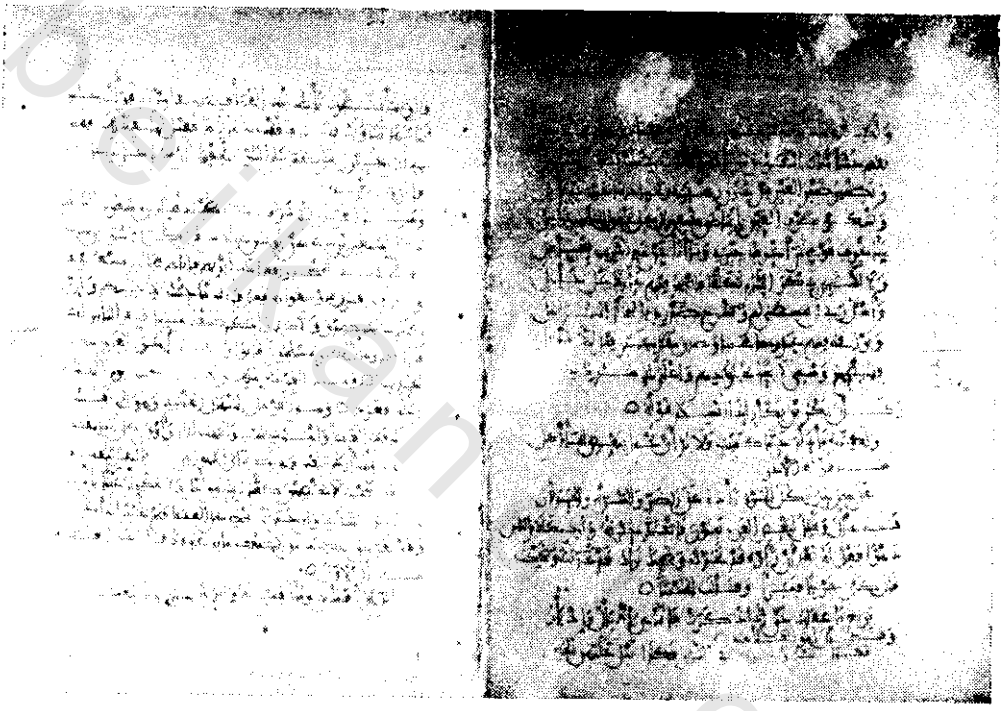

رقم (٣)

صفحة ٨٠ تكملتها فى صفحة ١٤١ وما بعدها الى آخر ١٥٨

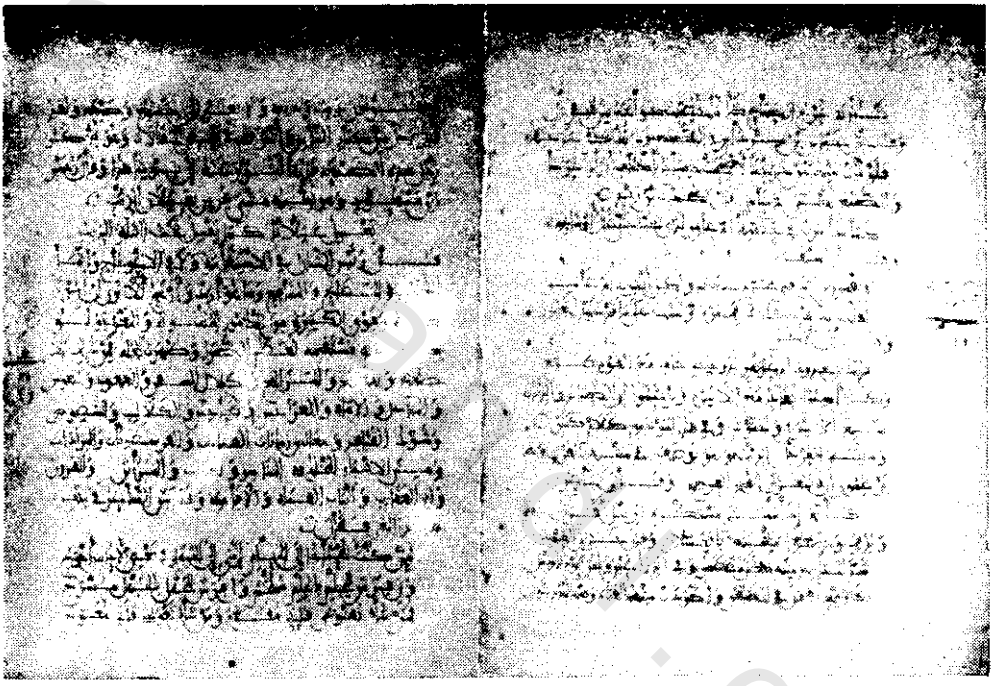

رقم (٤)
صفحة ١٥٨ تكملتها فى صفحة ٨١ الى آخر ١٤٠

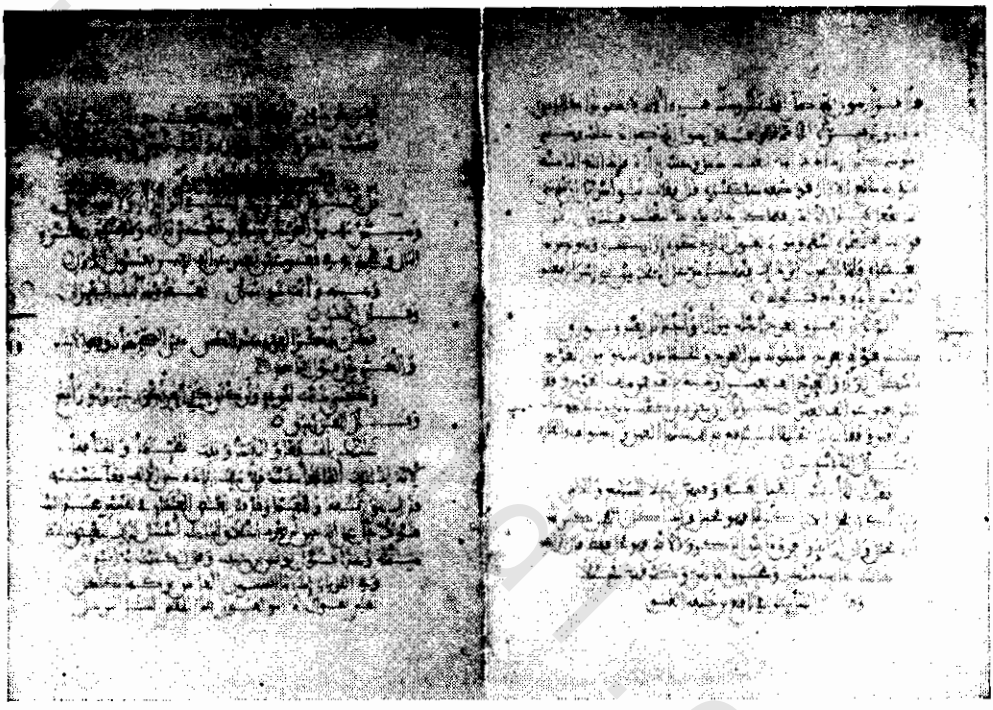

رقم (٥)
صفحة ١٤٠ تكملتها فى صفحة ١٥٩ حتى آخر المخطوطة

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وسلم

وهبَ الله لك حُسْنَ الاستماع ، وأشعرَ قلبك حُبَّ التثبّت ، وجعل أحسن الأُمور فى عينيك ، وأحلاها فى صدْرك ، وأبقاها أثراً عليك فى دينك ودُنْياك علْمًا تفيدُه وضَالاً تُرشِدُه ، وباباً من الخير تَفْتَحُه ، وأعَاذَك من التكلُّف ، وعَصَمَكَ من التلوُّن ، وبَغَّضَ إليك اللَّجَاجَ ، وكرَّه إليك الاستبداد ، ونَزَّهك عن الفُضول ، وعَرَّفك سُوء عاقبة المِرَاء ، وقد علمتَ مع ذلك من مُدِحَ بقوله :

مِنْ رَأْيِ ذى بَدَآتٍ لاتَزَال لَهُ بَزْلَاءُ يَعْيَا بها الجَثَّامَةُ اللُّبَدُ(١)

---

(١) البدءات جمع بدءة ، ويقال فيها أيضا البدوات جمع بداة وهو الأشهر : هى ما يسنح من الرأى بعد أن لم يكن ، يقال : ظهر لى فى هذا الأمر بداة أى رأى جديد ، والبزلاء : الرأى الجيد القوى مأخوذ من بزل البعير أى طلع نابه ، ويكون ذلك فى السنة الثامنة أو التاسعة من عمره ، والجثامة : البليد الذى لا يبرح مكانه ، واللبد بضم اللام وكسرها : الخامل الذى لا تجربة له لا ينتقل ولا يسافر لكسب المعاش .

والبيت يمدح رجلا بأنه من ذوى الآراء المتجددة التى يختار أحزمها فينفذه ، وهو ينسب للراعى ، ويرد فى المراجع بروايات متعددة فيروى : من امرئ ذى صباح ، ومن أمر ذى بدوات ، وفى صدر ذى بدوات .

انظر أمالى القالى ١/٥٣ ، ٢/٢٠٠ ، والسمط ٢٠٢ ، ونوادر أبى زيد ٨٥ ، ونوادر أبى مسحل ٤٦٢ ، وفصل المقال فى شرح كتاب الأمثال ١٣٠ ، واللسان : لبد ، بزل ، جثم ، بدأ .

وآن الآخرَ[١] قد قال :

ليتَ هنداً أنْجزَتْنا ماتَعِدْ وشَفَتْ أنْفُسَنَا ممّا نَجـدْ

واستبدّتْ مَـرَّةً واحـــدَةً إنّما العَاجِزُ من لا يستبِـدْ

ولا أعلم الموصوفَ بالاستبداد إلاَّ مُجَهَّلا مذمومًا ، ولا أعرف المنعوتَ بالبَدَوَاتِ إلاَّ مُدَفَّعًا مَضْعُوفًا[٢] .

وإنما الشَّأْنُ فى وُجْدانِ آلةِ التَّصَرُّف ، وفى تمام العَزْم بعد التبيّن ، لا أعرف إلاَّ هذين ....[٣] فليُتَصَّور ما زاد...

وما كلام الشاعرِ فى قصيدته إلاَّ كتمول الخطيبِ فى خُطبته ، وما ذلك إلاَّ كاحتجاج المحتجّ واختبار المختبر [.....][٤].

وفى كلّ ذلك يكون الخطأُ والصواب...

وقد قال الشاعر :

قليلُ تصاريف الخليقـةِ لاترى خليلًا لعبد اللهِ فى النَّاسِ قَالِيَا[٥]

وقد وصف الآخر [قول...] المتلوّن والمستطرف ، فقال :

شرُّ الأَخِلاَّءِ خليلٌ يَصْرُفُهْ واشٍ وأَدنى صاحبٍ يَسْتَطْرِفُهْ[٦]

مُلوّن تنكرُه وتعرفُهْ

---

(١) البيتان لعمر بن أبى ربيعة ، ديوانه ١٠٦ .

(٢) أى بالرغم مما قيل فى مدحهما ، ذلك لأن المستبد مذموم دائمًا ، ودا البدوات لا يثبت على رأى ، فقد يبرم أمراً ثم يعن له رأى جديد فينقض ما أبرمه ، وسوف يفيض الجاحظ فى بيان هذا فيما يلى .

(٣) كلمة مطموسة فى الأصـــل .

(٤) كلمات مطموسة فى الأصل .

(٥) قليل تصاريف الخليقة : أى ثابت الخلق والتصرفات ، وقاليا : كارها .

(٦) يستطرفه : يمله ، والشطر الأول من الرجز من مجمع الامثال ٣٧٤/١ ، وفي الأصل : عجرفه بدل يصرفه ، وقد اثبتت في الطبعة الاولى فلتصحح .

فاجعل محاسبة نَفْسِك صناعةً تَعْتَقِدُها ، وتَفَقُّدَ حالاتك عُقْدة ترجع إليها ، حتى تخرجَ أفعالُك متسومةً مُحَصَّلَة ، وألفاظُك موزونةً معَدّلة ، ومعانيك مُصَفَّاةً مهذَّبة ، ومخارجُ أُمورِك مقبولةً مُحبَّبة ، فمتى كنت كذلك ، كانتْ رِقَّتُك على الجاهل الغبيّ ، بقدر غِلْظَتِكَ على المعاندِ الذكيّ ، وتحبُّ الجماعةَ بقدر بُغْضِك للفُرقة ، وترغبُ فى الاستخارة والاستشارة بقدر زهْدك فى الاستبداد واللَّجاجة ، وتبدأُ من العِلْمِ بما لا يَسعُ جهله ، قبل التطوع بما يسع جهله .

ولا تلتمس الفروعَ إلاَّ بعد إحكام الأُصول ، ولا تنظرْ فى الطُّرَف والغَرَائب وتؤْثِرْ روايةَ المُلَحِ والنَّوادر ، وكلَّ ما خفّ على قلوب الفُرَّاغ ِوراق أسماع الأَغمار ، إلاَّ بعد إقامة العمود ، والبَصَرِ بما يُثْلَمُ من ذلك العمود ، فإن بعضَ من كلف برواية الأَشعار بدأَ برواية أَشعار هُذَيل قبل رواية شعر عبَّاس بن الأَحنف ، ورواية شعر ابن أَحمر قبل رواية شعر أَبى نواس ، وناسٌ من أَصحاب الفُتْيَا نظروا فى العَيْنِ[٢] والدَّين قبل أَن يَرْوُوا الاختلافَ فى طلاق السُّنَّة ، وناسٌ من أَهل الكلام نظروا فى [...][٣] والكُمْرِ والمداخلةِ والمُجاورة ، قبل أَن ينظُرُوا فى التوحيد والعدل والآجال والأَرزاق .

* * *

وسُئل بعضُ العُلَماءِ عن بعض أَهلِ البُلْدان ، فقال : أَبحثُ الناس عن صغيرٍ وأَتْرُكُهُمْ لكبير ، وسُئل عن بعض الفُقَهاء ، فقال : أَعلمُ

---

(١) كلمة مطموسة فى الأصل ولعلها كما أثبتنا .

(٢) العين : ما ضرب نقداً من الدنانير ، يقال : اشتريت بالعين لا بالدين أى نقداً وليس إلى أجل .

(٣) كلمة مطموسة فى الأصل .

الناسِ بما لم يكن ، وأجهلهم بما كان[١] ! وقد خِفْتُ أن تكونَ مَسْأَلَتُكَ إياى كتاباً فى تسميةِ العُرْجَانِ والبُرْصَان والعُمْيان والصُّمَّانِ والحُولَان ، من الباب الذى نهيتُك عنه وزَهَّدْتُكَ فيه .

وذكرتَ لى كتابَ الهيثم بن عدّى[٢] فى ذلك ، وقد خبَّرْتُك أن لم أَرْضَ بمذهبه ، ولم أُحِبَّهُ له حظًّا فى حياته ، ولا لِوَلَدِه بعد مماته .

وأنا أُحذِّرُك اللَّجاجَ والتَّتَايُع[٣] ، وأرغبُ إلى اللهِ لك فى السَّلَامة من التلوُّنِ والتزيُّد ، وفى الاستطرافِ والتكلُّف ، فإنَّ اللَّجَاجَ لا يكونُ إلاَّ من خَلَلِ القُوَّةِ ، وإلاَّ من نقصان قد دَخَلَ على التمكين ، واللَّجُوجُ فى معنى المغلوب ، والمتصرِّفُ فى معنى الغالب والمكتفى ، ولا يكونُ إلاَّ والعقدةُ منحلَّةٌ والنَّفْسُ منقوصة ، ثم لابدّ أن يتصلَ ضعف المُنَّة[٤] بقلَّةِ المعرفة ، ومتى نقصتْ المعرفة لم تكن المنة فاضلة ، وكان الفاعلُ إمّا لجوجاً مسارعاً ، وإما ذا بدواتٍ مُتلوناً . فاعرف فضلَ ما بين التصرُّف والتَّلَوُّن ، وليس الاعتراضُ من صفةِ اللَّجاج . وقد يكونُ الاعتراض محموداً ومذمومًا ، ولا يكونُ اللَّجاجُ إلاَّ مذموماً ، والتلون أن تكونَ سُرعة رجوعه عن الصَّوابِ كسرعة

---

(١) انظر الحيوان ٣/١٩ ، وفيه أن حفص بن غياث سئل عن فقه أبى حنيفة فقال : كان أجهل الناس بما يكون وأعرفهم بما لا يكون .

(٢) هو أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدى الطائى الإخبارى ، انظر ما كتبناه عنه وعن مؤلفه هـذا فى المقدمة .

(٣) اللجاج : التمادى فى الخصومة والشر ، ومنه قوله تعالى « ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون » ، والتتايع : التهافت فى الشر والإسراع إليه ، وركوب الأمر على خلاف النـاس .

(٤) المنة : القوة ، يقال : ليس لقلبه منة أى قوة .

رجوعه عن الخطإ واللَّجاج ، وأن يكون ثباتُ عزمه على إمضاء الخطإ الضارّ كثبوت عزمه على إمضاء الصواب النافع .

* * *

والذُّهُول عن العواقب مقرونٌ باللَّجاج ، وضَعْفُ العُقْدة مقرونٌ بالبدوات . قيل لبعضِ العُلماءِ : من أسوأُ الناسِ حَالاً ؟ قال : من لايثقُ بأحدٍ لسُوءِ ظنِّه ، ولايثِقُ به أحدٌ لسُوءِ فِعله . وقال عُمر بن الخطَّاب : لن ينتفعَ بعقله ، حتى ينتفعَ بظنّه[1] . وقال محمد بن حرب[2] : صوابُ الظنِّ البابُ الأكبر من الفَرَاسَة .

وقال بَلْعَاءُ بنُ قَيْس[3] :

وأَبْغِي صَوَابَ الظَّنِّ ، أَعْلَمُ أَنَّهُ إذا طَاشَ ظَنُّ المرءِ طَاشَتْ مَقَادِرُهْ

ألا تراهم يمدحُون ضرباً من الظَّنّ ، ويذمّون ضرباً آخر .

وأما الصَّوابُ فى الحال التى بين الحالتين .

وقال الله عزّ ذكرُه : « اجْتَنِبُوا كثيراً من الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ[4] » ، وهذا البعضُ هو ذاك الكثيرُ الذى ذكره ، لأن قليلَ الكثير ربما كان كثيراً .

---

(١) انظر العبارة بألفاظ متقاربة فى العقد الفريد ٣٦٣/١ ، البيان والتبيين ٦٨/٤ ، الحيوان ٥٩/٤ .

(٢) محمد بن حرب الهلالى ، له أقوال كثيرة فى البيان والتبيين ، وقد ذكر أبو الفرج فى الأغانى ٨٨/١٧ أنه كان على شرطة محمد بن سليمان العباسى ، انظر هامش البيان ٢٥٧/٢ .

(٣) سيرد الحديث عن بلعاء بن قيس مفصلا فيما يأتى ، وانظر البيت فى عيون الأخبار ٣٥/١ ، فصل المقال ١٢٨ ، الحيوان ٦١/٣ ، المؤتلف والمختلف ١٠٦ ، مجموعة المعانى ٢١٠ ، بهجة المجالس ٤١٩/١ ، وقد نسب إلى عفرس بن جبهة الكلابى فى حماسة البحترى ٤٠٣ .

(٤) سورة الحجرات الآية ١٢ .

وقيل لثقيف : بم بلغتم المبالغ ؟ قالوا : بسُوءِ الظَّنِّ .

وإلى ذلك ذهب الشاعرُ حيثُ يقول :

أَسَأْتُ إِذْ أَحسنتُ ظَنِّى بِكُمْ والحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بالنَّاسِ[1]

وذلك على قَدْر ما تُصادفُ عليه الزَّمان ، وتُشَاهِدُ من حالات الناس .

وليس سُوءُ الظنّ ، فى الجملة بالمذموم ، ولابحسن الظَّنِّ بالمحمود ، وإنَّما المحمودُ من ذلك الصَّوابُ على قدر الأَسبابِ القويَّةِ والضعيفة ، والذى يتجلَّى للعيونِ من الأُمور المقرِّبة ، وعلى ما جرتْ عليه العادةُ والتجربة ، ولقد قال اللهُ تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ[2] » ، اعلم أَنَّه لم يُرد تصويب ظنّ إبليس ، وليس مذهبُ الكلام وصف إبليس بشىءٍ من الصواب ، وإنما أَراد ذمّ الذين كَثُرَتْ ذُنُوبُهم حتى طرَّقوا على أَنفسهم سُوء الظن ، فصار كل من ظنّ بهم سُوءاً يصير ظنُّه موافقاً للَّذين يحاولون والذين هم فاعلون .

* * *

فاطلب العلمَ على تنزيل المراتب ، وعلى ترتيب المقدَّمات ، وليكنْ لتدبيرك نطاقٌ ، فإنه أَمان من الخطإِ ، وللَّذى تعتقدُ رباطٌ ، فإنه لابدّ للبنيان من قواعد .

وليكن أَحبُّ العلمِ إليك أَطوعَه لله ، فإن لم تفعلْ فاكْسَبْهُ للحال الجميلة ، والذى لا بدّ للشريف من معرفته علمُ الأَخبار ، ومعرفة علل النحو ، ولولا أَن الذى أَكتبُهُ لك مُجانبٌ لِطُرُق الهيثم ، وخارجٌ

---

(١) البيت للعباس بن الأحنف ، ديوانه ٩١ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٠ .

مما يشتهيه الرَّيِّضُ[1] المتكلِّفُ المَلُول ، وأنه كتاب جدٌّ غيرُ هَزْل لما كتبتُه لك ، وبالله التوفيق .

* * *

قال الهيثمُ بن عَدِيّ : العُرْجُ الأَشرافُ : أبو طالب ، مُعَاذُ بن جَبَل ، عبد الله بن جُدْعَان ، الحارثُ بن أبي شِمْر ، الحَوْفَزَانُ بنُ شَرِيك ، عمرُو بن الجَمُوح الأَنْصَارىّ ، الربيعُ بن مسعود الكلبيّ ، عبدُ الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطَّاب ، وذكر القَعْقَاعَ بنَ سُوَيْد المنقرىّ ، وسُلَيْمان بن كَيْسَان الكلبيّ[2] ، ولم يك يَذكرُ غيرَ هؤلاء .

وذكَرَ العُميان ، وكان الَّذى تركَ منهم أكثرَ مما ذكر .

* * *

والعُرْجُ الأَشرافُ ـ أبقاك اللهُ ـ كثيرٌ ، والعُمْىُ الأَشرافُ أكثر ، ولكنْ ما معناه فى أنَّ أبا فلان كان أعمى ، إذا لم يكن إنَّما اجتلب ذكر العَرَج والعَمَى ليجعلَ ذاك سبباً إلى قِصَصٍ فى أُولئك العُرْجان ، وإلى فوائد أخبار فى أُولئك العُمْيان ، وإلى أنَّ جماعةً فيهم كانوا يبلُغُون مع العَرج مالا يبلُغُه عامّة الأَصِحَّاء ، ومع العَمَى يُدركون مالا يدركه أكثرُ البُصَرَاء ، ولما جاء أيضًا فى ذلك من الأَشعار الصحيحة ومن الأَمثال المضروبة ، وكيف تهاجوا بذلك وتمادحوا به ، وكيف جزع من جَزَع ، وصَبَرَ من صَبر ، وما رَوَوْا فى ذلك من الأَخبار النافعة

---

(١) الريض : الذى لا يحكم تدبيراً .

(٢) سوف ترد تراجم هؤلاء الأعلام مفصلة فى أماكنها من الكتاب .

الأحاديث السائرة ، واللفظ المونق والمعنى المتخيَّر ، وكيفَ تبين ذلك النَّقص ، وظهر ذلك الخَلَلُ على بعض ، ولم يتبيّن على بعض .

* * *

ولو ذكرنا ـ حفظك الله ـ أن ممن سُقِي بطنه [١] : عثمان بن أبى العاص ، وعمران بن الحصين ، وخَبّاب بنَ الأَرَتّ ، وقُبيصة بن المهلب وفلان وفلان ، ثم لم نذكر حُسْنَ عَزَائِهِم [٢] ونوادر كلامهم عند نزول تلك الحوادث ، وعند توقُّع الفرج من تلك المضايق ، وأى شئٍ كرهوا من أصناف العلاج وحَرَّمُوه ، وأى شيءٍ استجازُوه واسْتَحلُّوه ، والذى رووا من الأحاديث فى ذلك الداء ، أو من الرّوايات فى ذلك الدّواء ، وكيف كانت تَعْزِيَةُ العائد وجواب المَعُود ، وكيف كان دعاؤهم ، وبأى ضربٍ من الكلام كان ابتهالُهُم ، فإنَّ ذلك عِظَةٌ لمن سمعه ، وأدبٌ لمن وعاه ، وصلاحٌ لمن استعمله ، فمن لم يذكرْ هذه العلل لذِكْر هذه الفوائد لم يكن ذكره لزَمَانة [٣] قوم أشراف بالمحمود ، ولا تنويهه قوماً بأدواء مستورين ، بالمَرْضِىّ .

وأولُ الشُّروطِ التى وُضعت فى أعناقِ الأَطبّاءِ سَتْرُ ما يطَّلعُون عليه فى أبدان المرضى ، وكذلك حكم من غَسَّل الموتى .

* * *

وسَأَلْتَنِى أن أبدأ بذكر البُرْصان ، وأُثَنِّىَ بذكر العُرجان ، ثم

---

(١) فى الأصل : سق بطنه ، تحريف ، وسوف ترد قصته تفصيلا فيما يلى من الكتاب .

(٢) فى الأصل : عزاهم .

(٣) الزمانة : المرض الذى يدوم طويلا ويلازم صاحبه كالعاهات وما إليها .

أذكرُ ما قالوا فى الأيمن والأعسر[١] ، وفى الأضبط وفى كُلِّ أعسر يَسَرٍ[٢] ، واختلاف طبائع الحيوان فى ذلك مع اختلاف حالات البَشَر فى الصغر والكبر ، وكيف القول فى الأشلِّ والأقطع ، وفى الأضْجم[٣] والأفْقم[٤] وفى صاحب اللقوة[٥] والأشدق[٦] ، وفى سَعَة الأفواه وضيقها ، وفى عِظَم الأنوف وصغرها ، وكيف مدحُوا الرُّءُوس بالعِظَم وذمّوها بالصِّغَر ، وما قالوا فى الدمامة والنَّبالة[٧] وفى القصر والطول ، ثم الذى قالوا فى الأجْلح والأنزع[٨] ، وفى الأصلع والأقْرع ، وفى الأزعر والأمْعر[٩] .

وما قالوا فى الشُّطِّ[١٠] والسُّنُوط[١١] ، وفى الأحْدَب والأعْلم[١٢] ، وفى الآدَر[١٣] والأفْقَح[١٤] ، وما ذكروا به الأعضاء ، ووصفُوا به الجوارحَ ، وما جاء فى ذلك من الأشعار والأخْبار ، والأمثال والآثار .

---

(١) الأعسر : الذى يعمل بشماله .

(٢) الأضبط : الذى يعمل بكلتا يديه وكذلك الأعسر اليسر ، ولا يقال أعسر أيسر ولا عسراء يسراء ، وعلى هذا كلام العرب ، انظر اللسان ٦/٢٤٠ .

(٣) الأضجم : مائل الشق معوجه ، وقد قرأها الشيخ حمد الجاسر : الأصم .

(٤) الأفقم : هو الذى تتقدم ثناياه العليا فلا تقع على السفلى .

(٥) اللقوة : داء يصيب الوجه يعوج منه الشدق .

(٦) الأشدق : الواسع الشدق .

(٧) النبالة : العظم والحسن ، يقال : أجاد غذاءه حتى نبل جسمه .

(٨) الأجلح : الذى انحسر شعره عن جانبى رأسه وكذلك الأنزع .

(٩) الأمعر : من ذهب شعر ناصيته .

(١٠) الشط بضم الشاء جمع شط بفتحها ، وهو الذى خف شعر رأسه وحاجبيه .

(١١) السنوط بضم السين جمع سنوط بفتحها ، وهوالكوسج الذى لا شعر فى لحيته خلقة .

(١٢) الأعلم : مشقوق الشفة العليا .

(١٣) الآدر : المصاب بالأدرة ، وهى انتفاخ الخصية من انسكاب سائل فيها .

(١٤) الفقحة : الدبر ، والأفقح : من أصيب بداء فيها .

وقد فخروا بالعَمَى ، وذلك كثير ، واحتَّجوا بالعَرَج وذلك غير قليل .

وإذا كان الأَعرابيُّ يعتريه البَرَصُ فيجعله زيادةً فى الجمال ودليلاً على المجد ، فما ظنُّك بقوله فى العَرَج والعَمَى ، وهما لا يُسْتَقْذَرَان ولا يُتَقَزَّزُ منهما ولا يُعديان ولا يُظَنُّ ذلك بهما ، ولا ينْقصان من تدبير ، ولا يمنعان من سُؤْدَدٍ ، وهذا المعنى نفسه قد ذكره شاعرُ قريش حين عدَّد أسماء من عَمِى من أشرافهم فقال فى كلمةٍ له :

ومُطْعَمٍ وعَـدِىٍّ فى سيادتِهِ ... فذاكَ داءُ قُرَيْشٍ آخِرَ الزَّمَن

وخيرُ دَائِكَ داءٌ لا تُسبّ بهِ ... ولا تبيتُ تَمَنَّى لذة الوَسَنِ

داء كريمٌ فلا عَدْوَى فتحذَرَهُ ... فالحمدُ للهِ ذى الآلاء والمِنَنِ

* * *

وقد يفرُّ الأَعرابىُّ فى الحرب ، فلا يُقِرُّ بالجُبْنِ عن الأَعداء ، وبالنكول عن الأَكْفَاء ، بل يُخْرِجُ لذلك الفرار معنىً ، ويجعلُ له مذهبًا ، ثم لا يرضى حتى يجعلَ ذلك المفخر شعراً ، ويُشهِرُه فى الآفاق ، قال مالكُ بن أَبى كعبٍ[1] فى الفرار :

مَعَاذَ إِلَهى أَن تقولَ حَليلَتِى ... أَلاَ فرَّ عنِّى مالكُ بنُ أَبى كَعْب

أُقَاتِلِ حتَّى لا أَرى لِى مقاتِـلاً ... وأَنْجُو إذا غُمَّ الجبانُ من الكَرْبِ[2]

---

(١) هو مالك بن أبى كعب بن القين أخو بنى سلمة ، من الخزرج ، شاعر كانت له فى حروب الأوس والخزرج قبل الإسلام آثار وذكر ، وهو والد كعب بن مالك الأنصارى الصحابى المعروف ، ترجمته فى معجم الشعراء ٣٥٨ ، والأغانى ٢٢٨/١٦ .

(٢) انظر البيتين وقصتهما فى الأغانى ٢٢٨/١٦ ، وانظرهما فى معجم الشعراء وحماسة الخالديين ، والثانى فى حماسة البحترى ٥٣ .

يقولُ : أنا وإن وَلَّيْتُ هاربًا حين لا أجدُ لى مقاتلاً ، فقد ولَّيتُ ومعى عقلى ، وأتمُّ الفُرَّارِ فى الحرب آلةً من عرف المَفَرَّ كما يَعْرِفُ المَكَرَّ ، يقول : فلستُ كمن يستفزعه وهل الجبان[١] ، ولا كالذى يَعْجَلُ فَيُلْجِمُ ذَنَبِ فَرَسِه ، ويركبُهُ مشكولاً[٢] ، ويركلُه برِجْلِهِ وهو مُقيّد ، وينزلُ عن ظهره ويظُنّ أن سعيَه على رجليه أبلغُ من ركضِ فرسه فى النَّجاةِ ، قال زيدُ الخَيْل[٣] :

أُقاتلُ حتَّى لا أرَى لى مُقَاتــلاً ... وأَنْجُو إذا لم يَنْجُ إلاَّ المُكَيَّسُ
ولستُ بِذِى كَهْرُورَةٍ غير أنَّنى ... إذَا طلعَتْ أُولَى المغيرةِ أعْبَسُ[٤]

وقال الحارث بن هشام[٥] :

اللهُ يعلَمُ ما تركتُ قِتَالَهُــمْ ... حتَّى رَمَوْا فَرَسِى بأَشْقَرَ مُزْبِدِ
فَصَدَدْتُ عَنْهُم والأَحِبَّةُ فيهمُ ... طمَعًا لهم بِعِقَابِ يوم مُفْسِدِ

---

(١) قرأها الشيخ حمد الجاسر : يستقر عنه الجبان ، والصحيح ما أثبت ، ووهل الجبان : خوفه وفزعه .

(٢) المشكول : المقيد بالشكال وهو الحبل .

(٣) هو زيد بن مهلهل بن منهب بن عبد رضا الطائى ، من أبطال العرب فى الجاهلية ، لقب زيد الخيل لكثرة طراده بها ، وكان طويلا جسيما من أجمل الناس ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم وسماه زيد الخير وأقطعه أرضاً بنجد ، مات وهو فى الطريق إليها سنة ٩ هـ ، انظر الإصابة الترجمة ٢٩٣٥ ، خزانة الأدب ٤٤٨/٢ .

(٤) الكهرورة : العبوس أو الفرح واللهو واللعب ، والبيت الأول بالرواية التى هنا فى مجمع الأمثال ٧٦/٢ بدون نسبة ، وورد منسوباً لزيد الخيل فى فصل المقال ٣٨٠ والرواية فيه : أقاتل ما كان القتال حزامة ، وانظرهما مع بيتين آخرين فى نوادر أبى زيد ٧٩ وانظر ديوانه المجموع ٧٣ .

(٥) الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، صحابى أسلم يوم فتح مكة ، كان شريفاً فى الجاهلية والإسلام ، خرج أيام عمر بأهله وماله إلى الشام فلم يزل مجاهداً حتى مات فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ ، وهو أخو أبى جهل بن هشام ، وكان قد شهد بدراً مع المشركين وفر يومئذ من المعركة ، انظر الإصابة ٢٩٣/١ ، ثمار القلوب ٢٣٩ .

وعلمتُ أنِّى إنْ أقاتِلْ واحِـداً أُقْتل ولا يَضْرُرْ عَدُوِّى مَشهدِى[١]

يقول : ليس من الصوابِ أن أقفَ موقفاً أقاتلُ فيه باطلاً

وقال عمرُو بن مَعْدِى كَرِب :

ولقـدْ أملأُ رِجْلَىَّ بهـا حَذَرَ الموت ، وإنِّى لَفَرُورْ

ولقـد أعْطِفُها كارِهـةً حينَ للنَّفْسِ من الموت فريرْ

كلّ ما ذلك منِّى خُلُقٌ وبكلٍّ أنا فى الرَّوْع جَدِيرْ[٢]

فزعم أن الفرارَ من أخلاقه ، كما أنَّ الإقدام من أَخْلَاقه ، وهذا خلافُ قولِ ابنِ مُطِيعٍ[٣] :

أَنَا الَّذى فَرَرْتُ يومَ الحَرَّهْ والشَّيْخُ لا يَفِرُّ إلاَّ مَرَّهْ

لا بَأْسَ بالكرَّةِ بعد الفَرَّهْ[٤]

---

(١) هذه الأبيات يرد بها الحارث على حسان بن ثابت رضى الله عنه حين عيره بفراره فى بيتيه الشهيرين :

إن كنت كاذبة الذى حـدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام

تـرك الأحبـة أن يقاتـل فيهم ونجـا برأس طمـرة ولجـام

وقد وصفها أبو عبيدة بأنها أحسن ما اعتذر به فى الفرار .

انظرها فى العقد الفريد ١٤٠/١ ، ٣٣٦/٥ ، عيون الأخبار ١٦٩/١ ، حماسة البحترى ٥٠ ، حماسة أبى تمام ١٧ ، الأغانى ١٦٩/٤ ، بهجة المجالس ٤٩٠/١ ، سيرة ابن هشام ١٨/٢ ، المعارف ٢٨١ .

(٢) الأبيات فى حماسة أبى تمام ١٧ ، حماسة البحترى ٥٢ ، الشعر والشعراء ٣٧٤/١ ، العقد الفريد ١٤٧/١ ، والرواية فيها كلها : هرير بدل فرير فى البيت الثانى .

(٣) هو عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوى القرشى ، كان على قريش يوم الحرة (حرة واقم ، انظر فى خبرها معجم البلدان ٢٤٩/٢) فلما انهزم أصحابه فر واختبأ ، ثم انضم إلى عبد الله بن الزبير أيام حصار الحجاج بمكة له ، فلم يزل معه حتى قتلا سنة ٧٣ هـ ، انظر الإصابة الترجمة ٦١٨٧ ، تهذيب التهذيب ٣٦/٦ .

(٤) الأبيات فى العقد الفريد ١٤٩/١ ، حماسة البحترى ٥٣ ، بهجة المجالس ٤٩٠/١ .

وقولُ ابن مطيع شبيهٌ بقولِ عُتَيْبَة بن الحارثِ بنِ شهابٍ[١] حيث يقول :

نَجَّيْتُ نَفْسِى وتركتُ حَزْرَهْ[٢] نِعْم الفتى غادرتُه بإِمْرَهْ[٣]

لا يَتْرُكُ المرءُ الكريمُ بِكْرَهْ[٤]

وقد أَقرّ كلٌّ واحدٍ من هذين على حِدَتِه بالعيب ، فأَمّا الآخرُ فإنّه حين فرّ ألزم نفسه وجميعَ الجيشِ ، وهو قولُه :

فإن يكُ عاراً يومَ ذاكَ أتَيْتُهُ فِرَارِى ، فذاك الجيْشُ قد فَرّ أجمعُ[٥]

وأما عامر بن الطفيل[٦] ، فقال :

أعاذِلُ لو كان البَدادُ لَقُوتِلُوا ولكنْ أَتَوْنَا فى العَدِيدِ المُجَمْهَرِ[٧]

---

(١) فارس بنى تميم ، وفيه يقول عمرو بن معدى كرب : ما أبالى أى ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقنى حراها أو عبداها ، ويعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث ، وبالعبدين عنترة والسليك بن السلكة ، قتل عتيبة يوم حو ، والذى قتله ذؤاب الأسدى ، انظر الأغانى ١٤/٢٧ ، مجمع الأمثال ٢/٤٤١ .

(٢) حزرة اسم ابنه وبه كان يكنى ، انظر النقائض ١/٣٦٤ .

(٣) يروى : بثبرة ، وهى اسم ماء فى وسط ديار ضبة .

(٤) الأبيات فى العقد الفريد ١/١٥٠ ، وقبلها :

ياحسرتا لقد لقيت حسره يالتميم غشيتنى غمره

(٥) البيت لنعيم بن شقيق التميمى كما فى حماسة البحترى ٥١ ، والرواية فيها : يوم فلج بدلا من : يوم ذاك ، والفلج قرية من قرى بنى عامر بن صعصعة ، وهو دون العتيق إلى حجر بيوم على طريق صنعاء ، وكان بها يومان ، فالأول لبنى عامر بن صعصعة على بنى حنيفة ، والآخر لبنى حنيفة على بنى عامر ، انظر مجمع الأمثال ٢/٤٣٢ .

(٦) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، من بنى عامر بن صعصعة ، فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم فى الجاهلية ، خاض المعارك الكثيرة وأدرك الإسلام شيخاً فى الثمانين ، ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة بعد فتح مكة يريد الفدر به فلم يجرؤ عليه ، ومات بالطاعون أثناء عودته إلى ديار قومه سنة ١١ هـ . انظر الإصابة ٦٥٥٠ ، خزانة الأدب ١/٤٧١ .

(٧) البداد : المبارزة ، يقال : لقوا بدادهم أى لقى كل رجل رجلا ، والبيت فى العقد الفريد ٥/٢٣٥ والرواية فيه نزونا بدل أتونا .

وقال لبيد[١] :

أَعَاذِلُ لو كان البَدادُ لقُوتِلُوا ولكنْ أَتَوْنَا كُلُّ جِنٍّ وخَابِلِ[٢]

أَتَوْنَا بشَهْرَانٍ ومِـذْحَجَ كُلِّهَا وما نَحْنُ إلاَّ مثلُ إحْدَى القبائلِ[٣]

وأَقرّ قيسُ بنُ الخطيم بغير هذا الجنس من الفرار فقال :

إذا ما فَرَرْنا كان أَسْوَا فِرارِنا صُدُودَ الخُدُودِ وازْوِرَارَ المناكبِ[٤]

وقد علم قيسٌ أن هذا المِقدارَ لا يُسَمّى فراراً ، ولا يُعَيَّرُ به أَحدٌ .

قال : ولما انهزم الناسُ يوم أَبِي فُدَيْك كان عَبَّادُ بنُ الحُصَيْن[٥]

---

(١) هكذا نسب الجاحظ البيتين هنا وفى الحيوان ٦/١٩٥ للبيد ، والواقع أنهما لعامر ابن الطفيل أيضاً قالهما يوم فيف الريح ، وهو يوم التقى فيه بنو الحارث بن كعب ومن معهم من قبائل خثعم (شهران وناهس وأكلب) ببنى عامر ، وبعد ثلاثة أيام من القتال لم يستقل بعضهم من بعض غنيمة وأسرع القتل فى الفريقين جميعا ، وفقئت عين عامر بن الطفيل وكاد أن يقتل لولا أن فر على فرس له ، قيل : وكان الصبر والشرف فيها لبنى عامر ، انظر النقائض ١/٤٦٩ ، العقد الفريد ٥/٢٣٥ ، معجم البلدان .

(٢) البداد : المبارزة ، وفى الحيوان : التداد بمعنى التناظر والتماثل وهى قراءة جيدة ، والخابل قال فى الحيوان : الخابل والخبل اسم للجن الذين يخبلون الناس بأعيانهم دون غيرهم ، وقال الشاعر :

تناوح جنـان بهن وخبـل

كأنه أخرج الذين يخبلون ويتعرضون ممن ليس عنده إلا العزيف والنوح .

(٣) رواية الشطرة الأولى من هذا البيت فى النقائض :

وخثعم حى يعدلون بمذحج

ويبدو أن الشطرة التى هنا ملفقة من بيت آخر له فى القصيدة نفسها وهو قوله :

أتونا بشهران العريضـة كلها وأكلبها ميـلاد بكر بن وائل

(٤) البيت فى ديوانه ٣٤ ، حماسة البحترى ٥٣ ، العقد الفريد ١/١٤٩ .

(٥) عباد بن الحصين بن يزيد بن عمرو الحبطى التميمى ، أبو جهضم ، فارس بنى تميم فى عصره ، ولى شرطة البصرة أيام ابن الزبير ، وكان مع مصعب أيام قتل المختار بن أبى عبيد ، وشهد فتح كابل مع عبد الله بن عامر ، وأدرك فتنة ابن الأشعث وهو شيخ مفلوج ، ثم رحل إلى كابل فقتله العدو هناك نحو سنة ٨٥ هـ ، انظر المعارف ٤١٤ ، جمهرة الأنساب ٢١٣ ، المحبر ٢٢٢ ، أما يوم أبى فديك فكان بين عمر بن عبد الله بن معمر وأبى فديك عبد الله بن ثور الخارجى ، وقد أبلى فيه عباد أحسن البلاء ، انظر المعارف ، والأغانى ١١/١٨٧ .

فى المنهزمين وهو يَصيحُ بأَعلى صوته : أَنا عَبَّادُ بنُ الحُصين ، فقال له بعض المنهزمين : فلم تُنَوِّهُ باسمك على هذه الحال ؟ قال عبّاد : لكى لا تركبَنى غَمْرَة[١] . ألا ترى أَنَّ عَبّاداً صحيحُ التَّدْبير فى حال انْهزامه ، وقد ترك القتالَ عن غير جُبنٍ ، وترك القتالَ كى لا يُقْتَلَ ضَيَاعًا ، وعبّادٌ فارسُ الناسِ غيرَ مُدَافَع ، وإيّاهُ عنى الشاعر حيثُ يقول :

مَنْ مُبْلِغٌ عنّى نَهيكَ بنَ مُحْرِزٍ فَدُونَكَ عَبَّاداً أَخَا الحَبَطَاتِ
فَدُونكَهُ ، يُسْتَهْزَمُ الجيشُ بِاسْمِهِ إذا خَاضَتِ الفُرْسَانُ فى الغَمَرَاتِ

والشاهد من الشّعر على تقديم عبّادٍ على الفرسان كثيرٌ موجود .

* * *

ويكون الأَعرابىُّ شَخْتًا مَهْزُولًا ومُقَرْقَمًا[٢] ضَئِيلًا ، فيجعلُ ذلك دليلًا على كَرَم أَعْراقِهِ وشَرَف ولادَتِه[٣] .

قال الأَصمعىُّ : قلتُ لغلامٍ أَعْرابىٍّ : مالى أَراكَ ضَعيفًا نحيفًا وصغيرَ الحجم قليلًا مَهْزُولًا ؟! قال : قَرْقَمَنِى العِزُّ . وأَنْشَدُوا قولَ الآخَر :

قَدْ علمتْ أَنَّا أَتَاوِيَّان مِنْ كَرَمِ الأَعْراقِ ضَاوِيَان[٤]

وأَنشدوا :

قَرْقَمَهُ العِزُّ وأَضْوَاهُ الكَرَمُ

---

(١) الغمرة : شدة الأمر ومزدحمه .

(٢) الشخت : الدقيق الضامر خلقة لا هزلا . والمقرقم : الذى لا يشب من سواء الغذاء .

(٣) مما يروى عن أبى الذيال شويس الأعرابى العدوى قوله : ما قرقنى إلا الكرم ، قال أبو عبيد : يعنى أن أباه طلب المناكح الكريمة فلم يجدها إلا فى أهله ، فجاء ولده ضاويا . انظر البيان والتبيين ٩٧/٢ ، سمط اللآلى ٨٧١ ، اللسان ٢٧٧/١٥ .

(٤) الأتاوى : الغريب ، والضاوى : النحيف خلقة .

وليس العجبُ فى قوله : إن الأَعراقَ تَضْوى ، وإنمّا العَجَبُ فى قوله : إنَّ العِزَّ يُقَرْقِم ، لأَن الأَوّل قد قال :

فتًى لم تَلِـدْهُ بنـتُ عَـمٍّ قريبـةٌ
فيَضْوَى وقد يَضْوَى رَدِيدُ القَرَائِب(١)

وقال الأَسدىُّ :

ولستُ بضَـاوىٍّ تمـوجُ عظَامُـهُ ولَادَتُهُ فى خالدٍ بَعْدَ خَالِدِ
تَقَـارَبَ من آبائِهِ أُمّهاتُـهُ إلى نَسَبٍ أَدْنى من الشَّبْرِ وَاحدِ
بَنُو أَخَوَاتٍ أَنكَحُوهُـنَّ إخْوَةً مُشَاغَرَةً فالحَيُّ للحىِّ والدُ(٢)

وهكذا كثير .

* * *

والضَّوى فى البهائم أَوجدُ منْها فى الناس ، فليس العجب من ذكرهم الضَّوى إذا ترددتْ الأَولادُ فى القرابات ، وإنمّا العجبُ فى قولهم : العزُّ يُقَرقم ، لأَنَّ الأَعرابىَّ حين ابتُلى بالدَّمامةِ والعلَّةِ ثَقُل عليه أَنَّ يُقِرَّ بالذِّلَّةِ والضعف ، فاحتجّ لذلك ، وأَحال النَّاس على معنًى لا يدركونه بالمشاهدة ، وهذا من ذكائه ودهائه . فبهذه النفوسِ — حفظك الله —

---

(١) الرديد : المردود ، والبيت فى سمط اللآلى ٨٧١ ، وقال فى هامشه إنه للنابغة الذبيانى وقد ورد فى الديوان ٢٥ وقبله بيت آخر هو :

لعمرى لنعم الحى من آل ضجعم تزور ببصرى أو ببرقة هـارب

وانظره فى مجمع الأمثال ٣٤٣/٢ ، والتنبيه على أوهام القالى ١٢٤ ، واللسان ١٥٣/٤ ، والرواية فيه : الغرائب بدل القرائب ، وقد ذكر الميمنى فى السمط أن هذه الرواية خطأ شائع فى هـذا البيت .

(٢) المشاغرة : الشغار وهو أن يزوج الرجل امرأة على أن يزوجه أخرى بغير مهر ، صداق كل واحدة بضع الأخرى ، وفى الأصل : مساعرة ، تحريف ، ويلاحظ أن فى هذا البيت إقـواء .

حفظوا أَنْسَابهُم ، وتذاكروا مآثرهم ، وقيّدُوا لأَنفسهم بالأَشعار مناقبهم وحاربوا أَعداءهُم ، وطالبُوا بطوائلهم[١] ، ورَأَوْا للشرف حقًّا لم يَرَهُ سواهم ، وعملوا على أَنَّ الناسَ كُلَّهُم دُونَهُم . وسأُنْشِدُك — إنْ شاء اللهُ — بعضَ ما افتخر به الأَعمى واحتجّ به الأَعرجُ ، قبل أَن تصيرَ إلى قراءة الجميع لأُعجِّلَ عليك معرفة الجملِة من مذاهبهم ، وبالله التوفيق .

* * *

فمن العُرْجان أَبو الدّهماءِ ، وهو الذى عيّرته امرأَته بالعَرَج ، فقال :

ما ضَّر فارسَهُم فى كلِّ ملحمةٍ
تَزَحُّفُ العُرْج بين الصَّفِّ والنَّضَدِ[٢]

إنْ كان ليس بمرقالٍ إذا نزلُوا
فى الفروسَةِ وثَّاب على الأَسَدِ[٣]

* * *

وخطب الطائىُّ الأَعرجُ[٤] امرأَةً فشكتْ عَرَجُهُ إلى جاراتها ، فأَنشأَ يقولُ :

تَشكَّى إلى جاراتِها وتَعِيبُنى ... فقالتْ معاذَ اللهِ أَنْكِحُ ذَا الرِّجْل
فكم من صحيحٍ لو يُوازَنُ بَيْننا ... لكنَّا سواءً أُولَمَالَ به حِمْلِى

---

(١) الطوائل جمع طائلة وهى الثأر .

(٢) التزحف : العجز عن المشى ، والنضد : الصفوف المرتبة المتساوية .

(٣) المرقال : السريع السير ، يقال : هو **مرقال** فى الحروب والنوازل أى سريع فيها .

(٤) هو المعروف بالأعرج المعنى الطائى واسمه عدى بن عمرو ، شاعر جاهلى إسلامى انظر الإصابة ٣٧١٣ ، معجم الشعراء ٢٥١ ، وسوف يرد بعض شعره فيما يلى من فصول الكتاب ، انظر ص ٢٢٦ ، **٢٢٧** .

وقال أبو العَمَلَّس فى امرأته :

ما ضَرّهـا أنّ أدِبٌّ على العَصَـــا
وفى السَّرْجِ ليثٌ صَادقٌ ضَيْغَمُ الشَّـدِّ

* * *

وقال أبو طالب بن عبد المطلب واسمه عبد مناف ، وأوّلُ هاشمىٍّ فى الأرضِ وَلَدَهُ هاشميّان بَنُوه الأربعة[١] ، وعيّرَهُ بعضُ نسائه بالعَرَج فقال :

قالتْ عَرِجْتَ فقـد عَرِجتُ فما الّـذى
أنكرتِ من جَلَـدِى وحُسْنِ فَعَـالِى
وانا ابنُ بَجْدَتِها فـيَّ صُبَابَتِهـــا[٢]
وسليـلُ كلِّ مُسَـــوَّدٍ مِفْضَـــالِ
أَدَعُ الرَّفَـاجةَ لا أريدُ نماءهَـــا
كيمـــا أُفيدُ رغـائبَ الأَمـــوالِ
وأكفُّ سَهْمِى عن وجـوهِ جَمّـــةٍ
حتى تصيبَ مقـــاتِلَ البُخَّـالِ[٣]

الرفاجة : التّجارة والتثمير .

وقال أبو طالب قولًا هو أجملُ وأرجح من قول الجميع وذلك أنّه قال وفسّر :

أنا يومَ السِّلْمِ مكفٌّ ويومَ الحـرب فارسْ

(١) يعنى بهم : عقيل وعلى وجعفر وطالب أبناء أبى طالب من زوجته فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف رضى الله عنها ، انظر المعارف ١٢٠ ، والمحبر ٢٦٢ .

(٢) ابن بجدتها : البجدة : الصحراء ، وابن بجدتها : الدليل الهادى فيها ، ويطلق هذا التعبير على العالم بالشئ المتقن له وهذا الشطر مكسور الوزن وقد اصلحته قدر الجهد .

(٣) لم ترد الأبيات فى ديوانه .

أنا للخميسةِ أنـفٌ حينَ ما للخَمْسِ عاطِسْ[1]

فزعم كما ترى أنه إذا كان فى السِّلْم فهو لا يحتاجُ مع الكفايةِ إلى ابتذال نفسه فى حوائجه ، وإذا كان فى الحربِ فهو فارسٌ يبلغ جميع إرادته .

* * *

وما ضرَّ — أكرمه الله — هَرْثمةَ بنَ أَعْيُنَ ونصرَ بنَ شيث وغيرَهما من الرؤساءِ المحاربين المقرّبين الذى كان يمنعُهم من المشى إذا كانوا على ظهور الخيل أمثال العُقْبان .

* * *

وذكر سيّارُ بنُ رافع الليثىُّ عَرَجَ أوفى بنِ مَوْألَة بعد أن اكتهل وكان له صديقًا ، فقال :

رأيتُ أَوْفَى بُعَيْد الشَّيْب من كَثَبٍ
فى الدَّار يَمْشِى عَلَى رِجْلٍ من الخَشَب
جعلتَ للعُرْج مَجْدًا لم يكنْ لَهُـمُ
وللقِصَارِ مَقالًا آخِرَ الحِقَـبِ

وكان أوفى مع شَرَفه وسُؤْدَدِهِ قصيراً نحيفاً ، وهو الَّذى يقول :

إذا كُنْتُ قَصْدًا فى الرِّجَالِ فإنَّنِى إذَا حَلَّ أمرٌ سَاحَتَى لَجَسِيمُ[2]

---

(١) الخميسة : الجيش ولم يرد البيتان فى ديوانه .

(٢) ورد البيت منسوباً لأوفى فى عيون الأخبار ٣/٥٤ ، ونسب للأحيمر اللص فى أمالى القالى ١/٤٩ ، ويرجع النسبة الأخيرة وروده فى البيان ٤/٦٧ مقترنا ببيت آخر هو :

تحيرنى الإعدام والوجه معرض وسـينى بأموال التجـار زعيم

والوجه الذى يعنيه هو وجه الكسب ، وهو ليست له حيلة للكسب إلا أن يجرد سيفه على التجار فيأخذ منهم ما يريد ، والقصد : الذى ليس بالجسيم ولا بالضئيل .

وهذا أشبه بقول الآخر :

إذا كنتُ فى القومِ الطِّوَالِ فَضَلْتُهُمْ
بِعَارفـــةٍ حتَّى يُقَـــالَ طَـــوِيلُ[1]

فهؤلاءِ بعضُ من فخر بالعَرَج ، وسنذكرُ ذلك فى باب القول فى العُرْجَان إنْ شاء الله .

* * *

وأمّا من فخر بالعَمَى ، فمنهم بَشَّارُ بنُ بُرْد ، وكنيته أبو مُعاذ ولقبه المرعّث ، مولًى لبنى عقيل ، وهو الَّذى يقول[2] :

إذا وُلِـدَ المولُـودُ أَعْمَى وَجَـدْتَهُ
وَجَدِّكَ أَهْدَى من بَصِيرٍ وأَحْـوَلَا
عَمِيتُ جَنِينًا والـذكاءُ من العَمَى
فجئتُ عَجِيبَ الظنِّ للعِلْمِ مَعْقِـلَا
وغاضَ ضياءُ العين للعـلم رافـدٌ
وقلبٌ[3] إذا ما ضيّعَ النَّاسُ حَصَّـلَا
وشِعْرٌ كَنَوْرِ الرَّوْضِ لَاءمْتُ بَيْنَـهُ
بِقَوْلٍ إذاماأَحْزَن الشـعرُ أَسْهَـلَا

* * *

وممن فخر بالبَرَصِ ثم من بنى رِزام المحجّلُ ، وكان بساقيه

---

(١) العارفة : المعروف والبيت لمبشر بن الهذيل الفزارى ، انظر معجم الشعراء ٤٧٤ .

(٢) الأبيات فى ديوانه ١٣٦/٤ ، ١٣٧ نقلا عن الشريشى فى شرح المقامات ١١٦/١ ، وأمالى المرتضى ٥٠٩/١ ، ودلائل الإعجاز ٣٦٨ ، والأغانى ١٤٢/٣ .

(٣) هكذا فى الأصل ، وصحة الرواية كما ورد فى المراجع السالفة : رافداً لقلب . . . الخ

وَضَحُ ، واسمه معاوية بن حَزْن بن موأَلة بن معاوية بن الحارث[١] ، وقد رأس وسُمِّىَ المُحَجَّل على الكناية من البياض[٢] والكناية أيضاً من البَرص ، وهو الذى يقول :

يا مَىُّ لا تَسْتنكِرِى تَحْويلِى ... وَوَضَحًا أَوْفى على خَصِيلى[٣]
فإنَّ نَعْتَ الفَرَسِ الرَّحِيـــلِ ... يَكْمُلُ بالغُـرَّةِ والتَّحْجِيـلِ[٤]

وهو الذى يقول :

وما أنا بالبَهِيمِ فتذكُرُونِى ... ولا غُفْل الإهابِ من الوُشُوم

* * *

وأصل تسميتهم المحجّل مأْخوذٌ من الحَجَل ، والحَجَلُ هو الخَلْخَالُ فإذا كان فى الفرس فى موضع المُخَلْخل بياضٌ قيل : مُخَلْخَل ، وقال النعمان بن بشير :

ويَبْدُو من الخَوْدِ الغريرة حَجْلُها ... وتبيضُّ من وَقْع السيوفِ المَقَادِمُ[٥]

---

(١) انظر معجم الشعراء هامش ٣٩٥ ففيه النص والبيتان التاليان نقلا عما هنا . وانظر البيتين فى عيون الأخبار ٦٥/٤ ، الحيوان ١٦٤/٥ دون نسبة .

(٢) ذلك لأن معنى التحجيل : بياض بقوائم الفرس .

(٣) التحويل : مأخوذ من حال الشئ فهو حائل : تغير لونه ، والرواية فى العيون والحيوان : تحولى بدل تحويل ، والوضح : البياض ، وأوفى : ارتفع ، والخصيل : جمع خصلة : وهى الشعر المجتمع .

(٤) الرجيل من الإبل والدواب : الصبور على المشى الذى لا يعرق ، ورواية العيون : الرحيل ومعناه الفرس القوى على السير والارتحال ، والغرة : البياض فى وجه الفرس ، والتحجيل : البياض فى قوائمه .

(٥) ديوانه ١١٣ ، والخود بفتح الخاء : الجارية الناعمة والجمع خود بضمها ، والغريرة : غير المجربة أى أنها شابة لم تعلم ما يعلمه النساء من الحب ، وحجلها : خلخالها وهى الكلمة محل الشاهد ، والمقادم هى مقادم الوجه وهى ما استقبلت منه ، وقادم الإنسان : رأسه .

وقال الفَرزدق :

مائلةُ الحَجْلَيْن لــو أنَّ ميتــاً
ولو كان فى الأكفان تحت الصفائح[١]

* * *

وإذا ابيضَّ من خِلف الناقةِ موضعُ الضِّرار[٢] فهم يسمون ذلك الخِلْف أيضاً محجلاً ، وأنشد :

نيطَ بِحِقْوَيْها رُعْيبٌ أقمرُ محجَّــلٌ مُقَــدَّمٌ مُؤَخَّــرُ[٣]

وقال فى ذلك أبو النجم :

يَذُبُّ بِلِحْيَيْ لَاهِجٍ مخَّــللِ عن ذى قَرَامِيصَ لها مُحَجَّل[٤]

* * *

وقد يقال أيضاً للغُرَاب محجَّلٌ على غير هذا المعنى ، وذلك أنهم يسمُّون حلقة القيدِ محجلًا على التشبيه بالحَجَل .

والغرابُ إذا مشى فكأنه مقيّد ، والمحجَّلُ هو المقيّد ، فذلك الحَجَل ، وقال الشاعر :

وإنَّى امرؤٌ لا تَقْشَعِرُّ ذُؤَابَتى من الذِّئْبِ يَعْوِى والغُرَابِ المُحَجَّل[٥]

---

(١) لم يرد البيت فى الديوان .

(٢) خلف الناقة : ضرعها ، والضرار : أصل الثدى . وفى الأصل الصوار ، تحريف .

(٣) الحقو : الخصر ، والرعيب : السمين .

(٤) يذب : يدفع ، واللحيان : العظمان اللذان فيهما الأسنان ، واللاهج : الفصيل الذى أولع بثدى أمه ، والمخلل : الذى وضع فى لسانه الخلال لئلا يرضع ، وقراميص ضرع الناقة : بواطن أفخاذها ، والمحجل : الأبيض .

وفي الأصل : يدب بحبي ولا معنى لها ، وقد ورد البيت في ارجوزة ابي النجم اللامية ضمن الطرائف الادبية للميمني ٦٥ ، والرواية فيه : ترين لحيي وهي خطأ ، ولا تتفق مع السياق .

(٥) البيت فى الحيــوان ٣٧٧/١ .

وقال الطِّرِمَّاحُ[١] :

شَنِجُ النَّسَا قَذَفُ الجنَاحِ كأنه ... فى الدار بعد الظَّاعنين مُقيَّدُ[٢]

وقال الآخر :

وصاح بصُرمها من بطن قوٍّ ... غَداةَ البين شَحَّاجٌ حَجُولُ[٣]

من اللائى لُعِنَّ بكلِّ أرضٍ ... فليس لهنَّ فى بلدٍ قَبُولُ

ولذكر المحجّل مكانٌ غير هذا .

* * *

وإذا كان الشىءُ مشهراً مُعْلَماً شبّهوه بالفرس الأَغرّ المحجل ، فإنه إذا كان فى الخيل كانت العيون إليه أسرع ، ولذلك قال زُفَرُ بن الحارث[٤] :

كلَّا وربِّ البيتِ لا تَقْتُلونَه ... ولمّا يكن يومٌ أَغرُّ محجَّلُ[٥]

* * *

(١) البيت فى ديوانه ١٣٠ ، الحيوان ٥/٢١٥ ، اللسان (شنج ، حرق ، دفا) .

(٢) شنج النسا : أى قصير النسا متقبضه ، وهو بهذا لا يسمح بالمشى ولذلك يحجل الغراب ، والنسا : عرق يستبطن الفخذ ، قذف الجناح : بعيد الطيران ، ورواية الحيوان : أدنى الجناح كما أن الرواية فى اللسان حرق الجناح ، وسيرد البيت فيما يلى برواية واثى الجناح ، وكلها تفيد معنى عدم القدرة على الطيران ، فمعنى البيت المقصود أن الغراب لأنه يألف المكان لا يستطيع أن يبارحه .

(٣) الصرم بضم الصاد وفتحها : القطع البائن ، والشحاج : الغراب وصوته يسمى الشحيج ، وبطن قو : قو منزل للقاصد إلى المدينة من البصرة ، يرحل من الشباج فينزل قواً ، وهو واد يقطع الطريق تدخله المياه ولا تخرج وعليه قنطرة يعبر القفول عليها يقال لها بطن قو (انظر معجم البلدان) .

(٤) زفر بن الحارث العامرى الكلابى ، خرج على مروان بن الحكم فى مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك هرب زفر إلى قرقيسيا ولم يزل متحصناً بها حتى مات نحو سنة ٧٥ هـ ، انظر الأغانى ٨/٢٩٦ ، خزانة الأدب ١/٣٩٣ ، تاريخ الطبرى ٦/٤٠ — ٤٦ .

(٥) البيت فى حماسة أبى تمام ٧٢ ، والرواية فيها : كذبتم وبيت الله ، وتاريخ الطبرى ٦/٤٢

ومن البُرصان الذين فخروا بالبَرَص ، الحارثُ بن حِلِّزة اليَشْكُرىْ الشاعر ، قال أبو عبيدة : لمَّا قال عَمْرُو بن كلثوم قصيدته التى فَخَر فيها لتَغْلِبَ على بكرٍ وهى التى أوّلها :

أَلَا هُبِّى بصحنك فاصْبِحينَا

وأنشدها الملكَ ، قال الحارث بن حِلِّزَة قصيدته التى فخر فيها لبكر على تغلب ، وهى التى أوّلها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِها أَسْماءُ

ثم أتى عمرو بن هند فأنشده إياها ، قال : وكان الحارث أبرصَ ، وكان الملك لا يملأُ عينه من رجل به بلاءٌ ، فأنشده من وراءِ السِّتْر ، فلما سمعها استخفَّه الطربُ وحمله السرور على أن أمر برفع الحجاب ، ثم أقعده على طعامه وصيره فى سُمَّاره .

وقالوا : هو المفتخر بالبرص حيث يقول[1] :

يا أُم عمرو لا تُغَرِّى بالـــرَّوَق ليس يَضُرُّ الطَّرْفَ توليعُ البَلَقْ[2]

إذا حوى الحلبة فى يوم السبق[3]

فهذا قول الشاعر ، فأمّا محمد بن سلام فزعم أنه لم يسبق الحلبة قط أبلق ولا بلقاء[4] .

---

(١) لم ترد الأبيات التالية فى ديوانه ، وهى فى عيون الأخبار ٤/٦٥ ، الحيوان ٥/١٦٤ مع اختلاف فى ألفاظ الرواية .

(٢) الروق : الجمال المعجب ، والطرف : الجواد الكريم العتيق ، والتوليع : التلميع من البرص ، والبلق : استطالة البياض وتفرقه ، والمعنى : لا يأسرك الجمال المعجب فإن الفرس الكريم لا يضره ما به من وضح إذا أتى يوم الحلبة سابقا .

(٣) الرواية فى العيون والحيوان : إذا جرى فى حلبة الخيل سبق .

(٤) انظر هذا القول فى حلية الفرسان ٨٥ .

قال الأصمعى : لم يسبق الحلبة أهضم قط[١] .

وقد يجوز أن يكون الشاعر أراد نفس الحلبة يوم الرهان وأراد غير ذلك من أبواب المسابقة ، على أنَّ صديقًا لى قد أخبرنى أنَّ فرسًا[٢] للمأمونِ جاءتْ سابقة .

ومما يدلُّ على افتخاره بالبَرَصِ قولُ ابن حَبْنَاء واسمُه المُغيرة[٣] :

إنِّى امرؤٌ حَنْظَلِيٌّ حين تَنْسُبُنِى ... لَا مِلْعَتِيكِ ولا أَخْوَالِىَ العَوَقُ[٤]

لا تَحْسَبَنَّ بَيَاضًا فِىَّ مَنْقَصَةٌ ... إنَّ اللَّهَامِيمَ فى أَقْرَابِها البَلَقُ[٥]

فقولُ ابنِ حَبْنَاء وقولُ الحارثِ بنِ حِلِّزَةَ يَرُدَّانِ على محمدِ بنِ

---

(١) الهضم : استقامة الضلوع وانضمام أعالى البطن أو استقامتها ودخول أعاليها وهو عيب فى الخيـــل مع قلة قبحة فى المنظر ، وانظر هذه العبارة فى حلية الفرسان ١٠٥ .

(٢) أى فرساً بلقاء كما يقتضى السياق ، وكما ورد ذلك فى الحيوان .

(٣) المغيرة بن حبناء بن عمرو بن ربيعة ، وحبناء لقب غلب على أبيه واسمه جبير ولقب بذلك لحبن (وهو داء فى البطن تعظم منه وترم) كان أصابه ، ويقال إن حبناء هى أمه ، والمغيرة شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية كان قد هاجى زياداً الأعجم فأكثر كل منهما على صاحبه وأفحش ولكنهما كانا متكافئين فى مهاجاتهما ينتصف كل منهما من الآخر ، استشهد المغيرة يوم نسف بخراسان ، انظر الأغانى ٨٤/١٣ ، المعارف ٢٨٥ ، الحيوان ٥٤/٥ ، السمط ٧١٦ ، القاموس (حبن) ، المؤتلف ١٠٥ ، معجم الشعراء ٣٦٩ .

(٤) ملعتيك : أى من العتيك(فحذف نون من)لغة بعض العرب ، والعوق : بطن من عبد القيس ، القاموس « عوق » .

(٥) اللهاميم : جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل ، والأقراب جمع قرب بضم القاف وسكون الراء وهو الخاصرة ، انظر البيتين فى الشعر والشعراء ٤٠٦/١ ، عيون الأخبار ٦٤/٤ ، أمالى القالى ٢٣٣/٢ والمؤتلف والحيوان والسمط بالأرقام السابقة .

وكان من قصة البيتين أن المغيرة كان يأكل يوماً مع الفضل بن المهلب فقال له الفضل :

فلم أر مثـــل الحنظلى ولونه ... أكيل كـــرام أو جليس أمير

فرفع المغيرة يده وقام مغضباً ، ثم قال البيتين ، وبلغ المهلب ما جرى فتناول الفضل بلسانه وسبه ، ثم أرسل إلى المغيرة بعشرة آلاف درهم واستصفحه عنه واعتذر إليه فقبل عذره ، الأغانى ٩١/١٣ .

سَلَّامٍ ما قال ، وكان زيادٌ الأعجمُ[1] قد ألَحَّ على بنى الحَبْناءِ يهجوهُمْ بالبَرَصِ ، فمن ذلك قَوْلُه :

عَجِبْتُ لِأَبْلَقِ الخُصْيَيْنِ عَبْـد كَأَنَّ عِجَانَهُ الشِّعْرَى العَبُـورُ[2]

فلما قيل له : قد رَفَعْتَهُم يا أبا أُمَامَة ، قال : واللهِ لَأَرْفَعَنَّهُم أيضاً ، فقال :

لا يَبْرَحُ الدَّهْرُ مِنْهم خَارِئًا أَبدًا إلَّا حَسِبْتَ عَلَى بَابِ اسْتِهِ القَمَرَا[3]

* * *

والبياضُ والأَوضاحُ تستعير ذكرَهُ العَرَبُ وتنقلُهُ فى الأماكن ، قال الرَّعْلُ بن جَبَلَة :

والناسُ كالخَيْلِ إنْ ذُمَّوا وإنْ مُدحُوا
فَذُو الشَّبَابِ كَـذَا فى النَّاسِ أَوْضَـاحُ

يقولون : فرسٌ كريمٌ وفرسٌ جَوَادٌ ، وفَرَسٌ عتيقٌ وفرسٌ رائِعٌ وليست هذه الأَسماءُ الكريمةُ إلَّا للإنسانِ والفَرَس .

* * *

---

(١) هو زياد بن سلمى الأعجم ، أبو أمامة ، من عبد القين أحد بنى عامر بن الحارث ، كانت فيه لـكنة فسمى بسببها الأعجم ، وهو شاعر أموى عمر طويلا ، انظر الخزانة ١٩٣/٤ ، المؤتلف ١٣٢ .

وكان السبب فى تهاجى المغيرة وزياد أنهما اجتمعا مع غيرهما من الشعراء عند المهلب فدحوه فأمر لهم بجوائزهم وفضل زياداً عليهم ووهب له غلاماً فصيحا ينشد شعره لأنه كان ألـكن لا يفصح فتصدى المغيرة للأمير يراجعه فى ذلك فهاجاه زياد ، انظر الأغانى ٩٠/١٣ .

(٢) العجان : الدبر ، والشعرى العبور : كوكب نير فى الجوزاء يقال إنها عبرت السماء عرضاً ولم يعبرها عرضاً غيرها ، يرميه بالبياض والبرص .

(٣) انظر الخبر كله بما فيه من البيتين فى الأغانى ٩٣/١٣ بالرواية التى هنا ، ومع اختلاف فى رواية هذا البيت فى الشعر والشعراء ٤٣٢/١ ، عيون الأخبار ٦٦/٤ .

وأصل البَلَق إنما هو فى الفرس[١] ، والعَرَبُ تستعيرُ ذلك وتضعُهُ فى مواضع كثيرة ، وقال الشاعر ، وهو يريدُ بياضَ الصُّبْحِ المخالطَ بسوادِ فى بقيةِ اللَّيل :

حَبَسْنَاهُمُ حتَّى أَضاء لَنَا من الصُّبْح مَشْهُودُ الشَّوَاكِلِ أَبْلَقُ[٢]

* * *

وسَموا أيضاً قَصْرَ السَّمَوْءَلِ بن عادياء : الأَبلق ، قالوا ذلك حين كان بُنِيَ بالحجارة البيض والسُّود ، قال الأَعشى[٣] :

بالأَبْلَقِ الفَرْدِ من تَيْمَاء مَنْزِلُهُ حِصْنٌ حَصِينٌ وجَارٌ غَيْرُ غَدَّارِ

وقال السموءلُ بن عَادِياء :

وبالأَبْلَقِ الفَرْدِ بَيْتى بِهِ وبيتُ المَصِيرِ سِوى الأَبْلَق[٤]

وقال خالدُ بن يزيد بن معاوية[٥] :

إنِّى أَرقْتُ لعارضٍ مُتَأَلِّقٍ ليلَ التِّمامِ وليته لم يُؤْلِقِ[٦]

---

(١) البلق فى الفرس : ارتفاع التحجيل فيه إلى الفخذين ، وفيه عداه اختلاط السواد بالبياض .

(٢) الشواكل جمع أشكل وهو ما فيه حمرة وبياض مختلط ، أو ما فيه بياض يضرب إلى الحمرة أو الكدرة .

(٣) البيت فى ديوانه٦٩ ، حماسة البحترى٢١٥ ، مجمع الأمثال ٣٧٤/٢ ، اللسان (غدر) .

(٤) البيت فى الأصل لا يقرأ ، وقد أثبتنا القراءة الصحيحة من الديوان ٢٦ ، والرواية فيه : أبالأبلق بدل وبالأبلق .

(٥) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، أبو هاشم ، كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وكان يقول الشعر ، ويقال إنه شغل نفسه بطلب الكيمياء فأفنى فى ذلك عمره ، انظر المعارف ٣٥٢ وانظر الأعلام .

(٦) العارض : السحاب ، والمتألق : البرق الكاذب لا مطر فيه ، وليل التمام : أطول ليل فى السنة .

ما إنْ ينـامُ ولا يُنِيم كأنَّـهُ بَلْقاءُ تضربُ عن فَلوٍّ أبْلَـقِ[١]

وأنشدوا قول الرَّاجزِ فى صفة السَّحَاب :

كأنَّـه فى ريقِـهِ إذا ابْتَسَمْ بَلْقَاءتطفِى الخيل عن طِفْلٍ مُتِمّ[٢]

وقال مُحْرِزُ بنَ مُكَعْبر الضَّبِّىُّ[٣] :

أَقَرَّ العَيْنَ أَنْ طَارَتْ عَلَيْهِـم شَمِيطُ اللَّوْن لَيْسَ لَهَا حُجُولُ

ولذلك سَمُّوا الأَبرصَ الأُسَيْدىَّ الرَّاقِى المتكهِّنَ[٤] : أَبْلَقَ ، وإيَّاه عنى ذُو الرُّمَّةِ فقال :

وعِنْدِى أُسَيْدِيّ عليه عَـلَامَةٌ من السُّوءِ لا تَخْفَى على من تَوَسَّمَا[٥]

وإياه يعنى العُلُبّانُ الشاعرُ أَحدُ بنى عبد اللهِ بنِ دَارِم حيثُ يقولُ :

هل الأَبْلَقُ الرَّاقِى الأُسَيْدِىُّ مُبْرِئٌ

فُؤَادِىَ من حُبِّى جَوَارِى بَنِى بَـدْرِ

ليس يعنى رَهْطَ حُذَيفة بن بَدْر .

وكان جَريرُ بن الخَطَفَى زَوَّجَ أَبْلَقَ بِنْتَهُ أُمَّ غَيْلَانَ على أَنَّه رَقَاها

---

(١) الفلو : المفصول عن الرضاع .

(٢) ريق السحاب وروقه : سيله ، والمتم : ما كمل خلقه واشتد .

(٣) فى الأصل : معكبر ، تحريف ، وهو محرز بن المكعبر الضبي من ولد بكر بن ربيعة ابن سعد بن ضبة شاعر جاهلى ، ذكره المرزبانى فى المعجم ٤٠٥ وذكر فى البيان ٤٢/٤ أنه أتى إلى مخارق بن شهاب سيد بنى مازن ليرد عليه إبله التى أغار عليها بنو يربوع ، فاعتذر إليه مخارق ، فلما قام عنه محرز محزوناً بكى مخارق حتى بل لحيته ، فقالت له ابنته : ما يبكيك ؟ قال : وكيف لا أبكى وقد استغاثنى شاعر من شعراء العرب فلم أغثه ، والله لئن هجانى ليفضحنى قوله ، ولئن كف عنى ليقتلنى شكره ، ثم نهض فصاح فى بنى مازن فردت عليه إبله .

(٤) هو رجل من بنى أسيد بن عمرو بن تميم يقال له الأبلق ، كان يرقى المرضى ويداويهم ، انظر النقائض ٨٤٠ — ٨٤٥ .

(٥) لم يرد هـذا البيت في ديوانه الذي بين يدي ، وقد ورد في ديوانه طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٣ ص ١٩٠٨ نقلا عن انساب الأشراف (نقلا عن ابراهيم صالح) .

فأفاقتْ[١] ، فعند ذلك قال العُلبّان :

أخزيْتَ نفْسَكَ يا جريرُ وشِنْتَها وجعلتَ بِنْتَكَ نسلةً لِلْأَبْلَق

وهجا جرير أيضاً الأبلقَ بأنه أبلق وبغير ذلك ، فقال[٢] :

يا أبلقَ الكَشْحِ إنَّ الناسَ قد عَلِمُوا
أنَّ المهاجر يُخْزِى كُلَّ كَذَّاب

لو كنتُ شاورتُ ذا عقل فأَرْشَدَنِى
يوم الفريقين ما دنَّسْتُ أثوابى

قد كنتُ عندك قبل الفعل ذا أرب
مستحكماً بعَراقِي الدَّلْوِ أكْرَابى[٣]

لو كنتُ صاهرتُ إنَّ الصِّهْرَ ذُو نَسَبٍ
فى مازنٍ أو عَدِىٍّ رهط مِنْجابِ

ما كنتَ ذا الجِلْدةِ البلقاءِ تُعْجبنى
سَوفَ السَّوابقِ ريحَ الكَوْدَنِ الرابى[٤]

---

(١) الذى ورد فى النقائض أن جريراً هو الذى كان مريضاً ، أصابته حمرة فتورم ، فأتاه الأبلق فقال له : ما تجعل لى إن داويتك حتى تبرأ ؟ قال جرير : حكمك ، قال : فداواه ورقاه حتى برئ ، فقال له جرير : احتكم ، فاحتكم عليه الأبلق أن يزوجه أم غيلان بنته ، قال : فزوجه إياها ، وكان جرير وفيا .

(٢) لم ترد الأبيات التالية فى ديوانه ولا فى النقائض .

(٣) العراقى بتشديد الياء وخفف لضرورة الشعر جمع عرقوة : خشبة توضع متقاطعة مع أخرى على الدلو كالصليب ، والأكراب جمع كرب بالتحريك ، وهو حبل يشد فى وسط العراقى ليلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

(٤) السوف : الرائحة ، والكودن : الفرس الهجين أو البغل أو البرذون ، والرابى : المنتفخ من شدة العدو أو الفزع .

واعترض على جرير البَلْتَعُ[١] العَنْبرىُّ لأنَّ عمرَو بنَ تميمٍ ولدهُم جميعًا ، فقال :

أَتَعيبُ أَبْلَقَ يا جريرُ وصِهْرَهُ وأَبُوهُ خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ وأَمْنَعُ
أَتَعِيبُ مَنْ رَضِيَتْ قُرَيْشٌ صِهْرَهُ وأَبُوكَ عَبْدٌ بِالخَوَرْنَقِ أَوْكَعُ[٢]

* * *

ومن الفرسان البرصانِ ممّن سُمِّىَ بالأَبلق لمكان البرص ، الفارسُ السُّلَمِىُّ ، وكان أيّام مروان يقاتل وهو أَبْلَقُ على فرس أَبلق ، وهو الذى يقول :

هَلَّا سِوَائِى كنتَ أَوْعَـدْتَهُ يومَ أَكب النَّاسَ فى الخَنْدَقِ
وأَحملُ الأَبْلَقَ فى صَفِّهِـمْ ثم أُنادِيـكَ فَـلَا تَنْطِقُ

وفيها[٣] قالوا فى تلك الحرب :

يا أَبْلقَ الكَشْحِ على أَبْلَـقِ وصَاحبَ الـرَّايَةِ والخَنْدَق

* * *

ولزم الأَبلقَ مكانٌ غيرَ هذا ، وهو أَنَّ الفارسَ يُشْهَرُ بركوبه فى الحرب ، ليس يجترئُ على ركوب الأَبْلقِ فى الحربِ إلَّا غَمْرٌ أو مُدِلٌّ بنفسه مُعْلَمٌ يقصد إلى ذلك .

ولما رأى إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ حَسَنِ بن حَسَنِ[٤] عمرَ بن

---

(١) فى الأصل : البليغ ، تحريف ، والبلتع العنبرى اسمه المستنير بن عمرو أو ابن سبرة وقيل غير ذلك ، وكانت بينه وبين جرير مهاجاة ، انظر معجم الشعراء ٤٧٨ .

(٢) الأوكع : الطويل الأحمق أو اللئيم .

(٣) فى الأصل : وفيها .

(٤) ابن على بن أبى طالب ، كان قد خرج هو وأخوه محمد على أبى جعفر المنصور وغلبا على المدينة ومكة والبصرة ، فبعث إليهما عيسى بن موسى ، فقتل محمداً بالمدينة وقتل إبراهيم بباخمرا على ستة عشر فرسخاً من الكوفة ، انظر المعارف ٢١٣ ، تاريخ الطبرى حوادث سنة ١٤٥ .

سَلَمَةَ الهُجَيْمِي على فرس أبلق ، أنشد قول الشاعر :

أمّـا القتـالُ فلا أراك مُقَـاتِلًا ولئنْ فررتَ ليُعْرَفَنَّ الأَبْلَقُ

قال ذلك وهو يمازحه ، وكان عُمرُ بنُ سلمةَ شجاعًا .

ولذلك قال طفيل الغنوى[١] :

بهَجرٍ[٢] تَهْلِكُ البلقاءُ فِيهِ فلا تَبْقَى ونُودِى بالرِّكَاب

وقال فى ذلك النابغة[٣] :

بوجهِ الارضِ لا يَعْفُو لهـا أَثَرٌ يُمْسِى ويُصْبحُ فيها البُلْقُ ضُلَّالَا

وصف طول الجيش وعرضه وكثافته وكثرة عددهم ، فلذلك خفى مكان الأبلق مع كثرة الأوضاح التى تُشْهِره .

* * *

وروى عن يحيى بن حَماد ، عن عاصم ، عن زِرّ ، عن عبد الله ، قال : « قلت : يا رسول الله ! كيف تَعْرِفُ من لم تَرَ من أُمَّتِك ؟ قال : هم غُرٌّ محجّلون من آثار الوضوء[٤] » .

مَعْنٌ ، عن مالكٍ ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله عليه السلام : « أنتم الغُرُّ المُحَجَّلُونَ من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيلَ غُرَّته وتحجيله فليفعل[٥] » .

* * *

---

(١) لم يرد البيت التـالى فى ديوانه .

(٢) الهجر : شدة الحر ، أو ارتفاع الشمس وقت الزوال إلى العصر .

(٣) البيت فى ديوانه ١٨٢ ورواية الشطرة الأولى : ما إن يبل ولم يوجد به أثر .

(٤) الحديث فى مسند الإمام أحمد ١/٤٠٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى باب الوضوء ٣ ، صحيح مسلم : طهارة ٣٤ ، ٣٩ ، سنن ابن ماجة : طهارة ٦ ، مسند الإمام أحمد ١/٨٢ ، ٢٩٦ .

ومن البرصان ممن فخر بالبرص ، سُوَيدُ بن أَبى كاهل[١] وهو الذى يقول :

نَفَرَتْ سَوْدَةُ منِّى أَن رأَتْ ... صَلعَ الرأْسِ وفى الجلد وَضَحْ
قلتُ يا سودةُ هذا والذى ... يَفْرُجُ الكُرْبَةَ عَنَّا والكَلَحْ[٢]
هو زينُ الوجهِ للمرءِ كما ... زَيَّنَ الطِّرْفَ تحاسينُ القُزَحْ[٣]

* * *

وممن فَخَر بالبرص من الرُّؤسَاءِ والشُّعَراءِ بَلْعَاءُ بن قيس بن يَعْمُرَ[٤] ، وهو الشَّدَّاخُ بنُ عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر ، قالوا : اعتراه البَرَصُ بعد أَنْ أَسنَّ ، وكان سيدَ بنى ليث فاشتدّ ذلك عليهم ، فقيل له فى ذلك فقال : سَيْفُ اللهِ صَقَلَهُ .

هذه رواية أَبى عبيدة والمفضَّل ، فأَمّا الذى لم أَزل أَسمعهُ فإن أَهل الحجاز يزعمون أَنه قال : سيف الله حَلَّاه ، من الحِلْية ، ويقول أَهلُ العراق : بل قال : سيف الله جلاه ، من الجَلْى[٥] ، وكلٌّ عربىٌّ . وهو أَبو مُسَاحِق وله لقبان ، أَحدهما مدحٌ والآخر ذم ، فأَمّا المدحُ فالحَجْبُ والمحجوبُ ، ويقول بنو ليث بن بكر : كان بلعاءُ يَحْجُبُ بالنَّبل من مكانٍ بعيد ، واللقب الآخر : بالعُ الجيران لأَنه كان نكِدًا لَجُوجًا شَكِسًا وداهيةً لا يُرَامُ ما وراءَ ظهره ، وهو الذى يقول :

---

(١) وردت الأبيات التالية فى عيون الأخبار ٤/٦٥ ، وحماسة البحترى ٢/١١ منسوبة لبعض بنى نهشل ، وقد يخطر بالبال أنه ربما كان هو سويد بن أبى كاهل ، غير أن سويداً ليس منهم بل هو من بنى يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط ، انظر جمهرة الأنساب ٣٠٨ .

(٢) الكلح : التجهم والعبوس .

(٣) الطرف : الجواد الكريم ، والقزح : خطوط من صفرة وحمرة وخضرة ، الواحد قزحة ومنه قوس قزح ، وهى قوس تتراءى فى الغمام ذات سبعة ألوان .

(٤) انظر ترجمته فى المؤتلف والمختلف ١٠٦ ، جمهرة الأنساب ١٨١ .

(٥) انظر هذا القول فى عيون الأخبار ٤/٦٣ ، والأغانى ١١/١٦٥ ، والحيوان ٥/٣٣٦ .

وأَبْغِى صَـــوَابَ الظنِّ أعلمُ أنَّهُ
إذا طاشَ ظَنُّ المرءِ طَاشَتْ مَقَادِرُهْ[١]

وهوا الذى يقول :

ومُغِيرِ حُجْرٍ [قد[٢]] جَرَرْتُ برجله
بعدِ الهـدوِّ لَـهُ قوائمُ أَربَـــعُ

وهو الذى يقول :

مَعِى كُلُّ مُسْتَرْخِى الإزَارِ كأَنَّـــــهُ
إذا مَامَشَى من أَخمصِ الرِّجْلِ ظالـعُ[٣]

وقال كُلْثُوم بن رزين[٤] بن يعمر بن نُفَاثة[٥] بن عدىّ بن الدِّيل فى تسمية بلعاء ببالع الجيران :

تمنَّى بالـــعُ الجيران سَـــيْفِى وأَنت إذا تُـــلَاقينى فَـــرُورُ
مَنَتْ لك أن تُلَاقِينى المنايَـــا أَمَام القَـــوْمِ أو وَحْـــدٌ أَسِيرُ

وقال فى بالع الجيران ربيعةُ بن أُمية بن زعر بن يعمر بن نُفَاثة ابن عدى بن الديل :

وأَفلت بالعٌ منَّـــا وخَـــلَّى حَلَائِلهُ وقد بَدَتِ المَعَارِى

* * *

ومن البُرْصان السَّادة القادة ، الذين مَدَحتْهم الشعراءُ بالبَرَص

---

(١) البيت فى عيون الأخبار ١/٣٥ ، والحيوان ٣/٦١ ، وفصل المقال ١٢٨ .

(٢) زيادة يستقيم بها الوزن .

(٣) الأخمص : خصر باطن القدم الذى يتجافى عن الأرض إذا مشى الإنسان ، هذا وقد ورد البيت فى خلق الإنسان لثابت بن أبى ثابت ٣٢٣ منسوباً لحسان ، ولا يوجد فى ديوانه .

(٤) فى المنمق ٣٢١ : كلثوم بن رزن . . . الخ .

(٥) فى الأصل : بغاثة والتصحيح من المنمق .

(٦) منت لك المنايا : تعبير معناه : قدرت لك الأقدار والأحداث .

أبو أُسَيِّدٍ عمرُو بنُ هَدَّابٍ المازنىُّ[١] : مدحه بذلك أبو الشَّغْثاء العَنَزِىُّ ، قال أصحابُنا : ما رأينا أحدًا قطُّ أَبَلَّ ريقًا ولا أتمَّ نَقَسًا ولا أربطَ جأْشًا من أبى أُسَيِّد عمرِو بنِ هَدَّاب ، كانوا عنده والناسُ يُعَزُّونَهُ على ذهاب بَصَره ، إذ مَثُل أبوعتَّابٍ الجَرَّارُ بين يديه وهو مِثل المحجوم[٢] ، وأبو عتَّاب هو إبراهيم بن جامع بن مَصَّاد[٣] مولى بلعدويّة فقال : يا أبا أُسيِّد ! لا تحزن على ذهابهما ؛ فإنَّك لو قد رأيت ثوابَهما فى ميزانك لقد تمنيتَ أن يكون اللهُ قد قطعَ يَدَيْك ورجليك ودقَّ ظهرَك وأدْمى ظِلْفَك[٤] . قال : فلم يبق من القوم أحدٌ إلَّا اسْتَغرب ضَحِكًا أو صاح بأبى عتَّاب وأراد إسكاتَه ، إلَّا أبا أُسيِّدٍ نَفْسَه ، فإنَّه لم يتغيَّر لذلك ولم يظهر منه قبولٌ ولا إنكار ، وأقبل على القوم ، فقال : يُرْعَى له حُسْنُ نيَّته ويُلغَى سُوءُ لَفْظه .

قالوا : ثم ما لبثنا إلَّا يسيرًا حتى دخل أبو الشغثاء العَنَزىُّ وعليه بَتٌّ وكَورٌ ضخم وخُفٌّ جافٍ[٥] ، فقال ، أُنْشِدُكَ أبا أُسيدٍ ما حَبَّرتُه

---

(١) عمرو بن هداب بن سعيد بن مسعود بن الحكم بن عبد الله بن مرثد بن قطن بن ربيعة ابن كابية بن حرقوص بن مازن من تميم ، ولى فارس لمنصور بن زياد ، وولى جده سعيد بن مسعود عمان لعدى بن أرطاة ، ولهم بالبصرة رياسة ، انظر جمهرة الأنساب ٢١٢ ، وأنظر الخبر التالى بتمامه فى الحيوان ١٦٤/٥ ، والجزء الأول منه فى الحيوان ٣٥/٣ ، عيون الأخبار ٤٨/٢ ، العقد الفريد ٣٠٩/٣ ، والجزء الثانى من الخبر فى محاضرات الأدباء ١٣٣/٢ ، المستطرف ٢٧١/٢ .

(٢) المحجوم : البعير وضعوا على فمه الحجام لئلا يعض ، وهو حينئذ يكون ثائراً ذا صوت أجش .

(٣) فى الحيوان : من آل أبى مصاد .

(٤) فى الحيوان : صلعك .

(٥) البت : الثوب الغليظ المنسوج من الصوف أو الوبر ، والكور : القماش الملفوف فى استدارة ، والمقصود بها العمامة ، والخف الجافى : الغليظ .

فيك من أراجيزى ؟ قال : هاتِ ، فأنشدَهُ أُرجوزةً أعرابيةً فَصِيحة[١] ، فبينا نحن نستحسن معانيها ونستجيدُ حَوْكَها إذ قال :

أبرصُ فيّاضُ اليدينِ أكلفُ[٢] والبُرْصُ أندَى باللُّهَى وأعْرَفُ[٣]
مُجْلوِّزٌ فى الرَجَفَاتِ يزحفُ[٤]

قال : فصِحْنا حتى قطعنا عليه إنشاده ، فقال عمروٌ : ارفقوا بشاعرنا وزائرنا فإن أكثرَ الشعراءِ الَّذين توضَّحتْ جلوُدهم قد افتخروا بذلك ، وقد قال الشاعر[٥] :

أيَشْتُمُنِى زيدٌ بأن كنتُ أبْرَصَا فكلُّ كريم ـ لا أبالكَ ـ أبرصُ

أراد : كلُّ أبرصَ كريم ، فقال : كلُّ كريم أبرصُ ، وهذا من المقلوب .

وزعم كثيرٌ من الناس أنَّ ذلك البياضَ إنما أصابَهُ بسبب يمينٍ حلف بها عند أستار الكعبة .

وسمعتُ غيرَ واحدٍ من جيرانه وأصحابه يزعمون أنهم ما زالوا يعلَمُونَ به وَضَحًا إلَّا أن الوضح يزيدُ ولا ينقص ، وقد ذَكَرْنَا شَأْنَ عمرِو بنِ هَدَّاب والذى حضَرَنا من مناقبه فى كتاب العُمْيان ، فلذلك لم نذكره فى هذا الباب .

* * *

(١) فى الأصل : فصحته ، تحريف .

(٢) الكلف : لون يعلو الجلد ويغير بشرته .

(٣) أندى : أكثر عطاء ، واللهى : جمع لهوة بضم اللام وفتحها ، وهى العطية أو أجود العطايا .

(٤) المجلوز : السريع ، والوجفات جمع وجفة وهى خفقة القلب من الاضطراب والخوف ، ورواية الحيوان : فى الزحفات مزحف بدل ما هنا .

(٥) البيت لأبى مسهر الأعرابى ، كما ورد فى عيون الأخبار والمستطرف والحيوان .

حدّثنى علىّ بن رياح بن شبيب الجَوْهرىّ ، عن أبيه رياح . وكان خاصًّا بالبرامكة يدخل عليهم متى أحب ، وكان يصلُ إلى مواضعَ لا يكادُ يصل إليها الخاصُّ عندهم ، قال : دعانى يومًا جعفرُ بنُ يحيى وهو كئيبٌ حزينٌ خاشعُ الطَّرْفِ شديدُ الانكسار ، فرفع لى عن بطنه ، فإذا على بطنه مقدارُ الدِّرهمِ بَرَصٌ ، فقال : يا أبا على ! هذا تمنُ العقوق .

قال : وكان الذى بينه وبين أبيه قَد سَاء .

قالوا : وهذا شىءٌ أخذه جعفر بن يحيى عن أطبّاءِ الهند . وأطباءُ الهند تزعم أنَّ العُقوقَ يُورثُ البرص ، وهذه القصة مجانبةٌ لسَبيلِ الطبّ .

* * *

وآفاتُ الدنيا كثيرةٌ وأمراضُها الشِّدادُ معروفةُ المقادير عند الأطبّاء. وقد بَيَّنوا المُسْتَغْلَقَ العُضَالَ المُؤْيِسَ من غير ذلك ، فقالوا فى مثلِ الجذام والبرصِ العتيق والسَّرَطان ، قال جالينوس : السَّرَطان لايبرَأُ . فإنَ بَرِىءَ فإنه لم يكن سرطاناً ، والماءُ الأصفرُ والقروحُ التى تكون فى الكُلْية والمَثَانة من الباب أيضاً الذى يعسُر التَخلُّص منه والعربُ تخافُ إعداءَ الجَرَبِ والصَّفَر[1] والعَدَسَة[2] والجُدرىّ وهم وإن استعظمُوا هذه الأشياء ولم يقدّمُوا البَرَص عليها فى الشدّة فإنّ القرآنَ أصدقُ منهم ، ولولا أن البَرَص العتيقَ أشدُّ امتناعاً وأبعا بُرْءاً لما ذكر اللهُ البَرَصَ دون هذه الأدواء . والفُرْسُ أشدُّ نفاراً من

---

(١) الصفر : داء فى البطن يصفر منه الوجه .

(٢) العدسة : بثرة تخرج فى الجسم قلما يسلم المصاب بها .

البَرَص ، والدليل على ذلك ما خبرّتك به من شدّته وامتناع التخلص منه ، قولُه : « وأُبرئُ الأَكْمَهَ والأَبرصَ وأُحْيِي الموتى بإذن الله »[١] [فأشار إلى إبراء الأبرص][٢] وإلى إبراءِ الأَكْمهِ وهو الأعمى المطموسُ ولم يذكرْ غير ذلك من جميع الأدواء والمعاضلِ والعللِ المُؤيسةِ .

* * *

وقال فى وجه آخر من معارضة البرص بخلافه وضده ، قال : أَوَ لَوْ جئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِين ، قال فَأْت بهِ إنْ كُنْتَ من الصَّادِقِين ، فألْقَى عَصَاهُ فإذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . ونَزَع يَدَهُ فَإذاهِيَ بَيْضَاءُ للنَّاظِرِين»[٣] وقال اللهُ لموسى : « أَدْخِلْ يَدَكَ فى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ»[٤] . هذا إلى ما حدَّث عبد الله بن عمرو ، عن يعقوب القُمِّيِّ ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عبّاس ، قال : جاءت قُريشٌ إلى اليهود فقالوا : ما جاءكم به موسى . قالوا : عصاه ويده بيضاءُ للناظرين ، ثم أتوا النَّصارى فقالوا : ماجاءكم به عيسى ؟ قالوا : كان يبرئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ويُحْيِي الموتى . فأتوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ادْعُ لنا ربَّك يجعلْ لَنَا الصَّفَا ذَهَباً[٥] .

فهذا أيضاً مما يعظّم شأْن البَرَص إذْ كان مذكوراً فى الحالات كلّها ، وإذا اجتمع على تشديد أمره القرآنُ والآثارُ .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩ .
(٢) زيادة يستقيم بها السياق لم ترد فى الأصل .
(٣) سورة الشعراء الآيات ٣٠ – ٣٣ .
(٤) سورة النحل الآية ١٢ .
(٥) انظر سيرة ابن هشام ٢٩٧/١

وأما قولُهم للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : اجعل لنا الصَّفَا ذَهَبًا ، فإنَّ اللهُ لا يُعطى النَّاس الأعلام[١] على قَدْرِ شَهَواتهم وامتحانِهم وتمنِّيهم ، ولا على سبيل التفكُّهِ ، فإذا لم يُعْطِهم ذلك على سبيل التفكُّهِ فإعطاؤُهم إيّاها على سبيل التَّعَنُّتِ أبعد ، ولا يجب ذلك إلاَّ لمن لم يَسمعْ بآية ولم يَرَ علامةً .

فأمّا المَغْموسُ فيها ومنْ قد غَمَرتْه البُرْهاناتُ فليس من الحكمةِ تمكين السُّفَهاءِ من مسألةِ ذلك ، وإنَّما يُنزِّلُ الله الأعلام على قدر المصلحة لا على أقدار الشهوة ، وعلى إلزام الحُجَّةِ لا على الطلب والمسألة . ومتى كان الطالبُ لذلك مُعانداً وجَاسِيًا لم يكن إلا بين أمرين ، إن جَلاَّها لَعِنَتِهِ وإجابتِهِ إلى مسألته ، قال : هذا سِحْرٌ ، وإن مَنَعَها قال : لو كان صادقاً لأتى بها ، وآياتُ اللهِ وبرهاناتُهُ أَجلُّ خَطَراً من أن تُوضع فى هذا المكان ، إلاَّ أن يريدَ اللهُ ببعض ذلك تعذيبَهم واستئصال شَأْفَتِهِمْ وأن ينكِّل بهم سواهم .

* * *

قالوا : والبَرَصُ أَصلُهُ من البَلْغم ، وإذا رأَيتَ الرجلَ القضيفَ[٢] اليابس أبرصَ الجِلْدِ ، فاعلم أن المِرَّةَ[٣] هى التى اعتصرتْ بَدَنَه حتى قذفت بالبَلْغَم ومَجَّتْه[٤] فى ظاهر جَسَده ، فلمّا لم يقوَ ذلك المكانُ على إنفاذِهِ وهَضْمِهِ تحيّر هناك فأفسد ما هناك .

* * *

---

(١) الأعلام جمع علامة وهى ما يستدل به على الشئ .

(٢) القضيف : الدقيق النحيف لا عن هزال بل من أصل الخلقة .

(٣) المرة : مزاج من أمزجة البدن ، وهى غالباً داء يصيب الشخص فيقال هو مرور .

(٤) فى الأصل محته ، تحريف .

وربما كان من حَرْق النَّار ، وربما كان من الكَيِّ ، إمّا من كيِّ البلاء وإمّا من التَّعَالُج .

وليس يعترِى السُّودَانَ من كيِّ البلاء كالذى يعترى الشُّقْرَانَ والحُمْرانَ ، وكذلك الوَسْم ، فإذا خاف النَّخَّاسُ أن يكونَ ذلك البياضُ بَرَصاً قَرَصَ ذلك المكان ، فإن احمرّ فهناك دمٌ ، وإن لم يحمرَّ عزم على أن به عيبًا وفُحْشة .

* * *

ويعترى غراميلَ الخيل وخُصَاها وجَحَافِلَها[1] وتكون العَظَاءُ والحيّات والوَزَغ[2] بُرْصاً ، بكلِّ ذلك جاء الشِّعْرُ وكلَّ ذلك قالت العَرَب ، وفى الحديث المرفوع أن الوَزَغَة لمّا نَفَخَتْ على نارِ إبراهيم صَمَّتْ وبَرِصتْ ، فمن ذلك قيل : سامٌّ أبرص ، فهذا الحديثُ شهد لأُولئك الشُّعَراءِ بالصدق . ولولا الأخبارُ والأشعارُ والآثارُ وكان كل بياض يكون فى أصل التركيب فى نفس الخلقةِ لا يسمَّى بَرَصًا[3] ولا يسمىّ البرص لولا العارضُ الحادث .

وقال صاحبُ المنطق : لا يقالُ لباطنِ جِلْد الكفِّ أقرعُ ولا للطِّفل آدَرُ ، لأنَّ ذلك لم يكن يَذْهب .

والذى نرجعُ إليه اتِّبَاعُ الآثارِ وما جاء فى الأشعار .

* * *

---

(١) الغرمول : الذكر ، والخصى بضم الخاء وكسرها جمع خصية وهما خصيتان : من أعضاء التناسل ، والجحافل جمع جحفلة وهى بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير ، وانظر هذا القول فى الحيـــوان ١١٩/١ .

(٢) العظاء بالمد : جمع عظاية وهى دويبة كسام أبرص ، والوزغ جمع وزغة وهى سام أبرص نفسه وسميت وزغة لسرعتها وخفتها .

(٣) فى الأصل : برص .

وحَشَفَةُ المختونِ ربّما بَرِصَت من حَزِّ المُوسى[١] ، وليس ذلك مما يزداد ويَتَفَشَّى .

ويعترى مواضعَ المَحَاجِمِ ويُصيبُ أشياء من النبات كنحو البطِّيخ وغير ذلك ، وقد رأيتُ من نَزَفَهُ الدمُ من جِراح فبرص .

* * *

وربّما جرى من ذلك على عِرْقٍ[٢] ، وهو عندهم مما يعترى الأولاد ويعدى إلى الصّحيح .

* * *

واللَّطَعُ : ضَرْبٌ من البَرَص ، وهو يصيبُ بواطنَ شِفاهِ الخِصْيان من الحُبْشان . وربّما كان الحَبشيُّ منهم ضخماً أَهْدَلَ[٣] أَدْلَمَ أَلْطَعَ فيكون هَوْلاً من الأهوال .

* * *

وشَعْرُ الرأس واللحية يَبْيَضُّ عن الهول الشديد ، ويبيضُّ الشَّعْرُ الحَدَثُ إذا كانت المِرَّةُ تقذف بالبلغم إلى ما هناك ، ويبيضُّ على الأعراق المتقدمة[٤] .

ويبْيَضُّ الشَّعر من جَبْهةِ المرأة إذا طال نَتْفُه ، والغالية[٥] تُشَيِّبُ

---

(١) فى الأصل : حد بدل حز ، والتصحيح من الحيوان ١١٩/١ وقال : إما لطبع الحديد ، وإما لقرب عهده بالإحداد وسق الماء إلا أن ذلك لا يعدو مكانه ، وانظر الجزء السابع منه صفحة ٢٦ .

(٢) العرق : الوراثة .

(٣) الأهدل : مسترخى الشفة السفلى والحال هنا أنها برصاء ، والأدلم بمعنى الأهدل .

(٤) الأعراق المتقدمة أى الأجداد .

(٥) الغالية : أخلاط من الطيب والمسك والعنبر .

الشعرَ ، وغسلُ الرأس بالسِّدْر[١] يُرقُّهُ .

* * *

وقد ينتتف أصحابُ الخيل جبهة الفَرَس البهيم[٢] مراراً بمقدارِ القُرْحةِ فيبيضُّ شعر ذلك المكان ويصير ذا قُرْحةٍ وذلك إذا كَرِهُوا أن يكون بهيماً ، واسم هذه القُرحة المعمولة فيها : الغريبُ .

* * *

وتصيبُ الدابّةَ الدَّبَرةُ[٣] فيبيضُّ شعرُ ذلك المكان ، وذلك هو التوقيع والجلد نفسه هو المُوَقَّع .

وقال محرز بن المكَعْبر[٤] الضَّبي :

فما منكمُ أَفْنَاءَ بكرِ بنِ وائلٍ لِغَارِتنَا إلاَّ ذَلُولٌ مَوقَّعُ[٥]

وذلك البياضُ يكون فى معنى البَرَص ، لأنَّ الجلد لا ينبتُ الشعرَ الأبيضَ حتى يبيضَّ .

وجلد الحافرِ كلِّه وجلدُ الظِّلْفِ كلِّه إذا كان أسودَ ، كان أسود الشعر ، وإذا كان أبيضَ كان أبيضَ الشعر .

* * *

والخيولُ تتحول فى ألوانها ، فيصيرُ الأشهبُ الأبيضُ أرقطَ

---

(١) السدر : شجر النبق .

(٢) البهيم : الأسود ومالاشية فيه .

(٣) الدبرة : القرحة تصيب الدابة .

(٤) فى الأصل : المعكبر وهو خطأ ، وقد سبق التعليق عليه .

(٥) الأفناء : أخلاط الناس الذين لا يعرف أصلهم ، والموقع : المقروح ، هذا وقد ورد البيت ضمن أبيات لربيعة بن طريف بن تميم يرثى بها قيس بن عاصم فى النقائض ١٠٢٤ ، وانظره بالنسبة نفسها فى العقد الفريد ٥/١٨٦ ، والرواية فيهما : ركوب مذلل بدل ذلول موقع .

مُدَنَّراً ، ويُسقى الفرسُ الحليبَ المحضَ فإذا طال ذلك عليه صار لونُه أشنع ، وقال الشاعر :

ودَاوَيْتُها حتَّى مَشَتْ حَبَشِيَّةً كأَنَّ عليها سُنْدُسًا وسُنْدُوسَا (١)

* * *

والناقة إذا كانت حمراء ثم صارت عُشَراء صارت خَلْساء(٢) بعد أن كانت حمراء ولذلك قال الشاعر :

حمراءُ لا خُلَسِيَّةُ الإتمامِ (٣)

* * *

وقد تحمرُّ أوبارُ الإبل جدًّا على بعض المراعى ، وقال الفزارىُّ فى صفة إبله :

كأَنَّمـا عُلَّتْ بحِنَّـاءٍ ودَمْ من حُرْضِ القِيعانِ والهَرْم الخَضِمْ (٤)

---

(١) البيت لزيد بن خذاق العبدى من قصيدة له فى المفضليات ٥٩٧ ، وانظره فى الحيوان ٣٤٩/١ ، وسمط اللآلى ٥٣ ، واللسان (شتا) والرواية فيها كلها : شتت بدل مشت .

ومعنى داويتها أى أحسنت القيام عليها ، وشتت حبشية أى اخضرت من العشب وذهبت شعرتها الأولى وسمنت ، وقال فى السمط : أراد بالدواء اللبن ، وكان أحسن ما يقومون به على الخيل ، والسندس : الثوب الأخضر ، والسدوس : الطيلسان الأخضر أيضاً .

(٢) الخلساء : السمراء .

(٣) الإتمام : الحمل ، هذا وقد حرف البيت فى الأصل تحريفاً كبيراً فورد كما يلى :

حمراء إلا خلسة الأمام

والتصحيح من الحيوان ٣٤٩/١ ، إلا أن الرواية فيه : حبشية بدل خلسية ، وهما بمعنى .

(٤) علت أى سقيت ، والعلل الشربة الثانية أو هو الشرب بعد الشرب تباعاً ، والحرض : نبات الأشنان التى تغسل به الأيدى عقب الطعام ، والهرم قيل هو البقلة الحمقاء (الرجلة) وقيل نبات فيه ملوحة ، والخضم والمخضوم : المأكول .

هذا وقد ورد البيت منسوبا لابن هرمة فى الحيوان ٢٥٥/٧ برواية أخرى ولما يستكمل .

وتبيضُّ الإبل ورءُوسها ووجوهها من أكل الحمْض ؛ قال عُمرُ ابنُ لَجَأ[١] :

شابتْ ولمّا تدنُ من ذَكَائِها[٢]

وقال الآخر[٣] :

أكلن حِمْضًا فالوُجُـــوهُ شِيبُ شَرِبْنَ حتى نَزَح القَلِيبُ[٤]

* * *

والمرأةُ الجميلةُ الرقيقةُ اللَّونِ إذا كان العَشِيُّ ضَرَبَ لونُها إلى الصُّفْرَة ، وبالغداةِ يَضْرِبُ لونُها إلى البياض ؛ قال الأَعشى :

بيضاءُ ضَحْوَتُها وصَفْـــ ـــراءُ العَشِيَّـــةِ كالعَرارَهْ[٥]

وقال الآخر :

قد علمتْ بيضاءُ صفْراءُ الأُصُلْ[٦]

* * *

---

(١) عمر بن لجأ بن حدير من بنى ذهل بن تيم بن عبد مناة ، شاعر راجز إسلامى ، كان يهاجى جريراً هو وابن خالته البلتع العنبرى ، انظر النقائض ٤٨٧ — ٤٩١ ، معجم الشعراء ٤٧٨ ، جمهرة الأنساب ٢٠٠ .

(٢) ذكاؤها : أى السن التى تشيب فيها .

(٣) البيت دون نسبة فى الإبل للأصمعى ٧٧ ، والحيوان ٣٤٩/١ .

(٤) الحمض : كل نبت حامض أو مالح يقوم على ساق ولا أصل له ، وهو للماشية كالفاكهة للإنسان ، والقليب : البئر ، وقال الأصمعى فى الإبل : ربما اشهاب وجهه وذنبه من غير سن وذلك من أكل الحمض .

(٥) العرار : بهار البر أو النرجس البرى ، وهو نبت طيب الرائحة ، واحدته عرارة بفتح العين ، انظر البيت فى ديوانه ٧٥ ، اللسان ٢٣٥/٦ ، العقد الفريد ١١٦/٦ ، كامل المبرد ٨١/٢ ، سمط اللآلى ٤٨٦ .

(٦) البيت ضمن أبيات ارتجز بها غلمة من بنى جذيمة يقال لهم بنو مسأحق وذلك حين سمعوا بمجئ خالد بن الوليد يوم الفتح ، وبعده :

يحوزهـــا ذو ثلة وذو إبل لأغنين اليـــوم ما أغنى رجل

سيرة ابن هشام ٤٣٥/٢ ، وانظره أيضا فى البيان ١٢٦/١ ، ٢٢٥ .

وأحسنُ ماتكون المرأةُ وأرقُّ ماتكون لونا ، وأعتقُ وجهًا وأدق محاسناً ، فى نفاسِها وغبِّ ليلةِ عُرْسِها ، وأطيبُ ماتكون خلوة إذا رَقَصتْ فى مَناحةٍ أو تعبت من طَوَاسِين[1] وأنشد ابن الأعرابىِّ لرجل قال لامرأته :

أَغْبَبْتنِى غِبَّ البناءِ ونافِساً وغبَّ الكَلَالِ كلُّ ذلك مُعْجِبُ

وقال بشار[2] :

كأَنَّ الذى يأْتيكَ من راحتيهما هَدِىٌّ غداة العُرْسِ أَو نُفَسَاءُ

والهَدِىُّ : العروسُ ، وقال المُتَلَمِّسُ أَو غيرُه :

وطُرَيْفَـةَ بنِ العبدِ كان هَدِيَّهُمْ ضَرَبُوا صَمِيمَ قَذَالِهِ بمُهَنَّـدِ[3]

* * *

وأنا أعلم أَنَّ عامّة من يقرأُ كتابِى هذا وسائر كتبى لايعرفُ معانى هذه الأَشعارِ ولا يُفسِّرُ هذا الغريبَ ، ولكنِّى إنْ تكلفتُ ذلك ضَعُف مقدار كل كتاب منه ، وإذا طال جدًّا ثَقُل ، فقد صرتُ كأَنى إنَّما أَكتُبُها للعلماء ، والله المعين .

* * *

وجِلْدُ الشيخ يسودُّ ويَبْيَض ، ويقول المتطبِّبُون وناسٌ من المتفلسفين : الصَّقْلَبىُّ[4] من لم تُنْضِجْه الأَرحامُ فهو فَطِير[5] .

---

(١) طس فلان فلانا : خصمه وأبكه ، وقال فى القاموس يقال : ذوات طس ولا يقال طواسين .

(٢) ديوانه ١/١٢٦ ، ورواية الشطرة الأخيرة فيه :

عروس عليها الدر والنفساء

(٣) البيت فى ديوان المتلمس ١٤٤ ، والرواية فيه : كطريقة ، وفيه : ضربوا قذالة رأسه ... الخ .

(٤) الصقالبة : جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر بين بلغر وقسطنطينية ، القاموس (صقلب) وقال فى المعجم الوسيط : انتشروا الآن فى كثير من شرقى أوربا ، وهم المسمون الآن بالسلاف .

(٥) الفطير : كل ما أعجل عن إدراك غايته ، وفى الأصل فطين ولا معنى لها هنا .

وأَرحامُ الزَّنْجيَّاتِ جاوزت الإنضاج وأحرقت الأَولاد[١] ، واحتجَّ بعضُهم بقول عُبيد الله بن زياد بن ظَبْيان[٢] لعبد الملك بن مروان[٣] : أنا واللهِ أشبه بأَبي من التَّمْرة بالتَّمْرة والجَمْرَة بالجَمْرَة والذُّبابِ بالذُّبابِ والغُرَاب بالغُراب ، ولكنْ إن شئتَ خَبَّرتُكَ بالذى لا يُشبه أَباه ، قال : ومَنْ ذلك ؟ قال : الذى لم تُنضجه الأَرحام ولم يولد لتمامٍ ولم يُشْبِهْ الأَخْوَال والأَعمام .

وعبيدُ الله بن زياد لم يُرِدْ معنى هذا المتطبِّب . إنما ذهب إلى أن عبد الملك كان وُلِد لسبعةِ أَشهر ، وكذلك عامرٌ الشَّعْبِيُّ[٤] وكذلك جَرِيرُ بنُ الخَطَفَى ، وكذلك قال الفَرَزْدق :

وأَنتَ ابنُ صُغْرَى لم تُتمَّ شُهورَهَا[٥]

ولم يُرِدِ اللَّونَ ، إنما أراد تمامَ البَدَنِ فى الطُّول والعَرْض . لأَنَّ لونَ من وُلِدَ لسبعة أَشهر ليس بالفاسد .

وقد زعموا أَن البَقير[٦] من الناس والخيل يخرج متغيِّر الجلد ،

---

(١) انظر هذه العبارة وما قبلها بتعبير آخر فى عيون الأخبار ٦٧/١ .

(٢) عبيد الله بن زياد بن ظبيان العائشى ، من تيم الله بن ثعلبة ، كان فاتكا من الشجعان وهو الذى قتل مصعب بن الزبير وحمل رأسه إلى عبد الملك ، انظر تاريخ الطبرى وجمهرة الأنساب ٣١٥ .

(٣) الخبر وارد فى البيان ٣٢٦/١ ، محاضرات الأدباء ١٧٠/١ بأوفى مما هنا .

(٤) هو عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمر ، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم ، توفى سنة ١٠٣هـ ، انظر تاريخ بغداد ٢٧١/٢ ، تهذيب التهذيب ٦٥/٥ .

(٥) لم يرد هذا الشطر فى ديوانه .

(٦) البقير : من شق بطن أمه عنه ليخرج .

وأن ذلك يكون مُلازماً ، وحَكَوْا ذلك عن لون خارجةَ بن سِنان[١] ، وعن جلد الفَرَس الذى قال فيه ابن أُقَيْصر[٢] ما قال ، وعن بعض أولاد نساء بنى تغلب ليلة نَفَر الجَحَّاف بن حَكِيم[٣] ، ولست أعرفُ تأويل قول عبيد اللهِ بن زياد لأن عبد الملك كان موصوفاً بحُسْنِ اللون . ولما قال عبدُ الله بن قيس الرقيّات[٤] فى عبد الملك :

يعتدلُ التَّاجُ فوق مِفْرَقِهِ عَلَى جبينٍ كأَنَّهُ الذَّهَبُ

قالوا : نشهدُ أنه قد كان رآه ؛ وإن كان إنما أراد أنه لم يكن بتامّ اللحم والعظم ، فما سمعنا أحداً عابَ عبد الملك بِقِصَرٍ ولا نحافة ،

---

(١) هو خارجة بن سنان بن أبى حارثة بن نشبة بن غيظ المرى ، من أشراف بنى سعد ابن ذبيان ، وهو أخو هرم بن سنان الذى كان يمدحه زهير ، وكان خارجة يسمى بقير بنى غطفان لأنه استخرج من بطن أمه بعد ما هلكت ، انظر المعارف ٨٤ ، جمهرة الأنساب ٢٥٢ .

(٢) ابن أقيصر : رجل بصير بالخيل من بنى أسد بن خزيمة ، انظر بعض أقواله فى البيان ١١٦/٢ ، وأمالى القالى ٢٥١/٢ ، وانظر اللسان ٢٠٣/١١ .

(٣) هو الجحاف بن حكيم بن عاصم السلمى ، أحد السادة المشهورين من بنى سليم وقد أوقع ببنى تغلب بموضع يسمى البشر فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وبقر بطون النساء ، وكان الذى أثاره على هذا النحو الأخطل التغلبى إذ بينما كان الجحاف جالساً عند عبد الملك بن مروان إذ قال له الأخطل :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر

يذكره بما فعل بنو تغلب بقومه حين أغاروا عليهم وقتلوا فارسهم عمير بن الحباب السلمى ، فثار الجحاف وقاد قومه وأوقع ببنى تغلب ، ثم خاطب الأخطل بقوله :

أبا مالك هل لمتنى إذ حضضتنى على القتل أم هل لامنى فيك لائم
فإن تدعنى أخرى أجبك بمثلها وأنت امرؤ بالحق لست بعائم

انظر الأغانى ، ومعجم البلدان (بشر) والمؤتلف والمختلف ٧٦ ، ومعجم الشعراء ٢٤٥ ، والبيان ٤٠١/١ وجمهرة الأنساب ٢٠٦ .

(٤) البيت فى ديوانه ٧١ ، مجالس ثعلب ١٣/١ والرواية فيهما يعتقد بدل يعتدل ، واللسان (عصب) والرواية فيه يعتصب وهما بمعنى .

وإنما كان أراد وُلِد لسبعة أشهر فإن الذين يُولَدُون[1] لسبعة أشهر ليس القِصَرُ والنحافة فيهم بأَفْشَى وأشدّ استفاضةً منه فى غيرهم .

* * *

وقال عبدُ الملكِ للشَّعْبِيِّ : مالى أراك ضئيلاً ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! زُوحمتُ فى الرَّحِم[2] . يقول : إنِّى وُلدت تَوْأَمَ أخِى ، ولم يقل لأنى ولدتُ لسبعة أشهر . وقال معاوية بن سنان الكلبى وكان أخا سنان ابن أبى حارثة لأُمه :

سناناً دعوتُ وأشياعَـهُ ... وَعَوْفاً دعوتُ أَبَا قَهْطَمِ
فقامَ فَتًى وَشْوشِىُّ الذِّرَا ... عِ لم يَتَلَبَّثْ ولم يَهْمُمِ[3]
تمطَّتْ به أُمُّـهُ فى النِّفَا ... سِ لَيْسَ بِبَتٍّ ولا تَوْأَمِ[4]

فكره أن يكون توأماً لأن التوأم يكونُ ضئيلاً ، وقد رأيتُ أنا غيرَ الذى يقولون . ولعلّ بعضَ من رأيتُ وأكثر كانوا أغلظ عَظْمًا وأَوْثَجَ وَثَاجَةً[5] ممن وُلِدَ لِتَمَامٍ . رأيتُ الحكمَ ومروان ابْنَىْ بِشْر بن أبى عمرو ابن العلاء ، وكان كلُّ واحدٍ منهما كالبَغْلِ المَزْنُوق . ورأيتُ الأَخوين اللَّذَيْنِ كانا يلقبَّانِ بمُنكَرٍ ونَكِير ، كلُّ واحدٍ منهما كالجَمَل المحجُوم ، ورأيتُ الأَخوين المازِنِيَّيْن وكان أحدهما إذا حُمَّ حُمَّ الآخَرُ وإذا

---

(١) فى الأصل : يولدو ، وهى خطأ .

(٢) انظر هذا القول فى العقد الفريد ٢/٢٣١ .

(٣) الوشوشى الذراع : الرجل الخفيف فى عمله ومراسه ؛ وفى الأصل . وسوس ، وهى تحريف .

(٤) البتّ ، خروج رجلا المولود قبل رأسه ، وتمطت به أى أنها زادت على تسعة أشهر حتى نفضجته . وانظر البيت فى اللسان ٣/٢٠٣ .

(٥) الوثيج : الكثيف والمكتنز ، وفى الأصل : أوتح وتاحة ، تحريف .

رَمِدَ رَمِدَ الآخرُ ، فلما مات أحدُهما أوصى الآخرُ ومات بعده بقليل ، وكان كل واحد منهما كأنه الرُّمْحُ الرُّدَيْنِيُّ[١] . ولم أَر فيهم نحيفاً إلاَّ عبدانَ تلميذَ يحيى بن مَاسَوَيْه[٢] .

* * *

حدّثنى الحسنُ بن إبراهيم العلوىُّ أن الحسنَ بن علىٍّ بنِ أبى طالبٍ وُلد لسبعة أشهر ، فمن كان أبرع عقلا وأتم قواماً منه ؟ وليس بمُسْتَنكَر أن تَرَى الواحدَ منهم بعد الواحد نحيفاً .

* * *

قالوا : وإنما صارتْ ألوانُ سكَّانِ إقليمِ بَابِلَ السُّمْرَةَ وهى أعدلُ الألوان ، لأنهم لم يُولدوا فى جِبال ولا على سواحلِ بحار[٣] . فخرجتْ عُقولُهم الباطنةُ من الاعتدالِ والاستواءِ على حَسَبِ ألوانِهم وشمائلهم الظَّاهرة .

* * *

قالوا : ويولد بالمغرب ... والأقشر[٤] ولا يَعُدُّونهما فى البرصان . وإن كان بياضهما خارجاً من المقدار ، ولو أنَّ بعض جِلد المغرب صار لبعض السودان والأُدمانِ لعدُّوهُما لا محالةَ فى البُرْصان .

* * *

---

(١) الردينى : نسبة إلى رديئة ، وهى امرأة كانت تقوم الرماح .

(٢) هو أبو زكريا يحيى أو يوحنا بن ماسويه ، طبيب مشهور ، خدم بطبه أربعة من الخلفاء هم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، انظر طبقات الأطباء ٢٤٨ — ٢٥٦ .

(٣) انظر عيون الأخبار ٦٧/١ .

(٤) هكذا بالأصل وثمة كلمة ناقصة لعلها الأحمر أو الأبيض أو نحو ذلك ، والأقشر : الشديد الحمرة .

ويَسْوَدّ منَ الزَّنْجيِّ كُلّ شيءٍ إلاّ أسنانه وبياضَ مقلتيه ، وعلى أنَّ لون راحته وظُفْره لونٌ بين البياض والسواد .

وسأل بعضُ المعترضين : كيف اعترى أهل البادية البَرَصُ مع كثرة التعسر وقلة الغذاء والجفاف ؟

قالوا : وجدنا ذلك فى عدد كثير من أهل الشرف والنباهة ، وقد علمنا أنه فى أهل الخمول على أضعاف ذلك ، إذا كان الخاملُ ليس فيه معنًى يذكر من أجله بسلامة ولا آفة .

قالوا : فإن قالوا لمكانِ اللَّبن وكل ما يجنى من اللبن ، قيل له : فإنَّ الزُّطَّ[1] فى الآجام يداومون بين السمك واللبن وهم مغتمسون فى جميع أصناف الرطوبات . وأهل البدو فى بلاد الجفاء والجفاف يداومُون بين اللبن والتَّمر[2] .

وليس فى الزُّطِّ من البرصِ ما يُنكر ، إلاَّ أن تكون الحرارةُ هى التى تقذف بالبلغم من أجواف أهل البدو إلى ظاهر جلودهم ، وليس هو عندى كذا كما قالوا ، ولكن العرب تتهاجى بالأشعار التى تُشَهِّرُ كلَّ خير وشر ، وتتعايبُ بالألفاظ المتعسِّفة المستحسنة التى تستدعى الرواية والحكاية . والرواةُ لا تُعنى بلسان الزُّطِّ وسكانِ الآجام لهوانِهم عليهم ، ولأنهم لم يتعايبوا بينهم بالكلامِ الذى يَحفظ الرواةُ مِثْلَه ، ولو جمعتُهم أيضًا كلَّهم لم يكونوا كقبيلة من قبائل بنى سعد .

* * *

---

(١) الزط : جيل من الهند معرب جت .

(٢) وردت العبارة فى الأصل هكذا : وأهل البدو فى بلاد الجفاف والجفاف ويداومون بين اللبن والتمر ، وهى مضطربة ولعل ما أثبت هو الصحيح .

وهذا المقدارُ من عدد البرصان إنما وجدتموه فى جميع جزيرة العرب منذ كانت العرب إلى يومنا هذا . فهذا المقدارُ قليلٌ ، ولو قصدتم إلى أُمة من الأُمم يكون عدد جماعتهم على الشَّطْر من عدد جماجم العرب ، لوجدتُم عدد برصانهم على الضعف من عدد بُرصان العرب .

ولولا طعنُ الحاسد لهم والباغى عليهم ، لكنتُ عسى ألا أتحمَّلَ لك نَسْخَ هذا الكتاب مع ثِقَلِهِ علىَّ ، وباللهِ التوفيق .

* * *

قالوا : والإنسانُ يعتريه البُرَشُ من شرب اللبن وأكل التمر ، وقد هَجَا بذلك الفرزدقُ بنى سعد لقُرْبهم من التَّمر ، فقال[1] :

ولستُ بِسَعْدِىٍّ عَلَى فِيهِ حِبْرَةٌ[2] ولستُ بعَبْدِىٍّ حقيبتُهُ التَّمْرُ
ولكنَّنِى من دارِ وَهْبِ بن مالكٍ وليس بحمد الله والِدِىَ الفِزْرُ

والفِزْرُ هو سَعْدٌ نفسُه[3] .

وأما البُرَشُ الذى يعترى الأَظفارَ فإنَّ ذلك شئ يعترى الأظفارَ فى حداثة السِّنِّ ، والسَّوادُ يَعْترى الناسَ كثيراً فى مواضع من جُلودهم ، يعترى الخُصَا والمَذَاكيرَ وربما اعترى جلودَ الآباط وجِلْدَ العجَانِ ، وإذا كبر الشيخُ جدًّا وصَلِعَ وطال عُمره ، عاد[4] لرأسه شعرٌ أَسودُ

(١) البيتان فى ديوانه ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، والمخصص ١٥٢/١ ، وخلق الإنسان ١٧٩ .

(٢) الحبرة بفتح الحاء وكسرها : صفرة خفيفة تعلو بياض الأسنان ، وفى الأصل : خبزة .

(٣) وهو سعد بن زيد مناة ، وكان من خبر تلقيبه بالفزر أنه كانت له معزى أبى بنوه أن يرعوها ، فوافى بها الموسم ووقف فى عكاظ وأنهبها الناس قائلا : من أخذ منها واحدة فهى له ولا يؤخذ منها فزر ، وهو الاثنان فأكثر . فتفرقت فى العرب وصارت مثلا لمن لا يدرك فيقال : لا آتيك معزى الفزر . انظر القاموس المحيط ، وفصل المقال ٩٤ ، ٤٠١ ، ومجمع الأمثال ٢١٢/٢ ، والاشتقاق ٢٤٥ .

(٤) فى الأصل : وعاد ولا يستقيم معها الكلام فلا جواب للشرط بعد ذلك .

كالقَنَازع[١] ، وقال الشاعرُ ، وهذا الشِّعْرُ مُبْهم[٢] :

لِنَصْرِ بن دُهْمَانَ الهُنَيْدَةُ عَاشَهَا وعِشْرُونَ حَوْلًا ثم قُوِّمَ فَانْصَاتا[٣]
وعَادَ له شَرْخُ الشبابِ الَّذى مَضَى وراجَعَ حِلْمًا بعد ما كان قد فَاتَا
وعادَ سَوَاد الرأسِ بعد ابيضاضِهِ ولكنَّه من بعد ذا كلِّهِ مَاتَا

ولم أرد هذا الشعر لرداءةِ طبعِ صاحبِه ، ولكنْ لجهلِهِ شَأْنَ الشُّيُوخ الهَرِمين ، والشاعر الجاهل الذى أُضيف هذا الشعر إليه لايجهل أَمْرَ الشيوخ فى ذلك ، وإنما فسد لقوله :

وعَادَ له شَرْخُ الشَّبَابِ الَّذِى مَضَى وراجَع حِلْماً بعد ما كان قد فَاتَا

وهذا باطلٌ أَلْبَتَّةَ .

* * *

ومن البَهَق الأَسود والأَبيض ، وإنَّما ذلك على قدْرِ النقص ، فإن كان من المِرَّةِ السوداءِ[٤] كان أَسود ، وإن كان من البَلْغم كان أَبيض ، وإذا ابيضَّ لم يُؤْمَن .

---

(١) القنازع : جمع قنزعة بضم القاف وفتحها ، وهى الشعر الملتف حول الرأس .

(٢) ينسب هذا الشعر لسلمة بن الخرشب الأنمارى أحد بنى أنمار بن بغيض كما ورد ذلك فى حماسة البحترى ١٣٩ ، اللسان ٢/٣٦٣، ٣٣٩ ، وتردد فى نسبتها بين سلمة وبين عياض ابن مرداس فى المعمرين للسجستانى ٨٠ ، وورد فى مجمع الأمثال ٢/٥١ ، بهجة المجالس بدون نسبة .

(٣) الهنيدة : مائة سنة ، وفى المراجع السابقة ، تسعين حولا بدل عشرين ويبدو أن الجاحظ لم يقبلها ، وانصات : استوت قامته بعد انحناء ، وكان من خبر نصر بن دهمان هذا كما ذكر السجستانى فى المعمرين : أنه عاش مائة وتسعين سنة حتى سقطت أسنانه وابيض رأسه ، فحزب قومه أمر احتاجوا فيه إلى عقله ورأيه ، فدعوا الله أن يرد عليه عقله وشبابه ، فرد الله عليه عقله وشبابه وفهمه واسود شعره ، فقال الشاعر فيه هذه الأبيات .

(٤) السوداء : أحد الأخلاط الأربعة التى يذكر الأقدمون أن الجسم مهيأ عليها ، بها قوامه ومنها صلاحه وفساده ، وهى : الصفراء ، والدم ، والبلغم ، والسوداء ، وانظر فيما ساقه الجاحظ فى هذه الفقرة : تذكرة داود الأنطاكى ٢/٣٧ .

وتزعم الأعراب وناسٌ من جُهَّالِ أصحابِ الأخبار أنَّ ناساً من العرب ومن قريشٍ خاصّة ، أصابهم الماءُ الأصفر والبرصُ جميعاً ، وأن بعضهم اكتوى فبرأ منهما جميعاً ، وبعضهم وَجَأَ بطنَهُ[1] بحديدة فبرأ منهما جميعاً ، وبعضهم اكتوى فمات .

فمن الَّذين ماتوا مسافرُ بن أبي عمرو بن أُميّة ، وأما الذى وَجَأَ بطنَهُ فبرأ منهما جميعاً أبو عزَّة الجُمَحِي[2] .

قال ابن الكلبيُّ : سمعتُ أبي وأبا مسكين قالا : كان عمرُو بن عبد الله بن وهيب بن حذافة بنُ جمح وهو أبو عزَّة الشاعر أصابه برص فسُقِيَ بطنه ، فأخرجتْهُ قريشُ من مكة مخافة العَدْوَى ، وهم يخافون عَدْوَى الجُذَام والبَرَص والجَرَب والصَّفَر والعَدَسَة والجُدْرى ، قالا : وكان إذا جَنّ عليه الليلُ أوَى إلى شِعَابٍ فى تلك الجبال ، فإذا حَمِيتْ عليه الشمسُ اسْتَدْرَى بظلالِ الأشجار ، فلمّا طال عليه البلاءُ أخذَ مُديةً فوجأَ بها جَنْبَهُ ليموتَ فيستريحَ ، فسال ذلك الماءُ وذهب ما كان به من بَرَص ، فأقام أيّاماً ثم دخل إلى قريش كما كان يدخُل ، فقال[3] :

---

(١) وجأ بطنه : ضربه وطعنه .

(٢) حضر أبو عزة هذا يوم بدر مع المشركين فأسر ، فرجا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلقه فأطلقه الرسول لفقره وعياله وأخذ عليه العهد ألا يهجوه وألا يكثر عليه ، فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية سيد بنى جمح لخروج فلم يزل يطمعه حتى خرج ، وسار فى بنى كنانة واشترك مع عمرو بن العاص فى استنفار القبائل لحرب المسلمين ، فلما كانت الوقعة أسره المسلمون فقال للرسول : من على ، فقال « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، لا قرجع إلى مكة تمسح عارضيك وتقول : خدعت محمداً مرتين » ثم أمر به عاصم بن ثابت فضرب عنقه ، انظر الأعلام ٥/٢٥١ والمراجع التى فى هامشه .

(٣) الأبيات التالية بنصها فى المحبر لابن حبيب ٣٠٠ ، وهى ماعدا الثالث من هذا الرجز برواية أخرى فى عيون الأخبار ٤/٦٧ ، وانظر اللسان مادة معد .

لَاهُمَّ رَبَّ وائلٍ ونَهْـــدِ والیَعْمَلَاتِ والخُیُولِ الجُرْدِ[١]
وربَّ من یَسْعی بأَرضِ نجدِ أصبحتُ عبداً لك وابنَ عَبْدِ
أبرأْتَ منی وَضَحًا بجِلْدِی من بَعْدِ ما طَعَنْتُ فی مَعَدِّی[٢]

* * *

وقالوا : ممن كُشِحَ[٣] بالنار مُسافرُ بنُ أبی عمرو بنِ أُمیّة بن عبد شمس[٤] كان وفَدَ على النُّعمان فسُقِی بطنُه هناك وأصابه وَضَحٌ، فقیل للنعمان : لیس له دواءٌ إلَّا الكیُّ ، وخبّروه بشأْن أبی عزّة ، فكواه فمات ، وهو الذی قال عند الكیِّ

قد یَضْرَطُ العَیْرُ والمِكْوَاةُ فی النَّارِ

فأرسلها مثلا ، فرثاه أبُو طالبٍ فی كلمةٍ له طویلةٍ[٥] :

لَیْتَ شِعْرِی مُسَافِرُ بن أبی عَمْرٍو ولَیْتٌ یقولُها المَحْزُونُ

---

(١) الیعملات : جمع یعملة وهی الناقة النجیبة المعتملة المطبوعة ، والجرد من الخیول : القصیرة الشعر .

(٢) المعد : البطن ، كما فسرها فی اللسان .

(٣) كشح : بالبناء للمجهول : كوی ، وفی الأصل : كسح .

(٤) كان سیدا جواداً ، وهو أحد ثلاثة سموا أزواد الركب ، والاثنان الآخران : زمعة ابن الأسود بن المطلب ، وأبو أمیة بن المغیرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وإنما سموا بذلك لأنهم كانوا لا یدعون غریبا ولا مارا بطریق ولا محتاجاً یجتاز بهم إلا أنزلوه وتكفلوا به حتی یظعن ، انظر الأغانی ٤٩/٩ ، وقیل : كانوا إذا سافروا مع قوم لم یتزودوا معهم ، انظر مجمع الأمثال ١٢٧/٢ ، وكان مسافر یهوی هند بنت عتبة أم معاویة ، وكانت تهواه لفتوته وظرفه ، فقالت له : إن أهلی لا یزوجونی منك لأنك معسر فلو وفدت علی بعض الملوك لعلك تصیب مالا فتتزوجنی ، فدخل إلی الحیرة وافدا علی النعمان ، فبینما هو مقیم عنده إذ قدم علیه قادم من مكة فأخبره بأشیاء كانت بعده ، منها أن أبا سفیان تزوج هنداً ، فسقی بطنه من الغم ، فأمر النعمان أن یكوی ، فأتی الطبیب بمكاویه فوضعها فی النار ثم وضع علیه منها مكواة ، وعلج من علوج النعمان واقف فلما عاین ذلك ضرط ، فقال مسافر هذا المثل الوارد فی النص ، انظر مجمع الأمثال ٩٥/٢ ، فصل المقال ٣٤١ ، مصارع العشاق ١٣٢ ، وانظر كتاب المثالب لابن الكلبی ٣٣.

(٥) انظرها فی الأغانی ٥١/٩ ، مجمع الأمثال ٩٥/٢ ، المفضلیات ١٩٣ ، معجم البلدان ٩٤٩/٤ ، مع اختلاف فی بعض ألفاظ الروایة .

رَجَع الوفدُ سالمين جميعًا وخليلٌ فى مَرْمَسٍ مَـدْفونُ
بُورك الميتُ الكريمُ كَمَا بُورك نَضْحُ الرُّمانِ والزَّيتُونُ[١]

وفيه يقول بعض العَبْليين[٢] :

ومَكْشُوح لدى النُّعمانِ أَمْسَى هُبَالَةَ بيتُه بيت الحمارِ
يَفُوقُ بنفسِهِ ويرى بَيَاضاً بكَشْحَيْهِ كتِلْمَاعِ النَّهَارِ[٣]

لأنه مات بموضع يُقال له هُبَالة .

* * *

وممن اكْتَوَى فَبَرِص : الكَوَّاءُ واسمه عَمْرُو[٤] ، وهو أبو عبد اللهِ ابن الكَوَّاءِ[٥] وإخْوَتُهُ النَّسَّابُون الذين يقال لهم بَنُو الكوّاء ، وفى الكوّاءِ وأخيه يقول الشاعر :

غُرَابَانِ هَذَا أَبْقَعُ اللَّونِ منهما وهَذَا غُرَابٌ فاحِمُ اللَّونِ مُصْمَتُ

* * *

---

(١) فى اللسان نضح الغضا نضحا : تعطر بالورق والنبات ، قال : وزعم بعضهم به الشجر ، ثم استشهد ببيت أبى طالب هذا ، انظر اللسان ٤٦/٣ ، ويروى : نضر الريحان بدل نضح الرمان .

(٢) هكذا فى الأصل ، ولعل المقصود به أحد أفراد قبيلة العبلات والنسبة عبلى بتسكين الباء أو تحريكها ، ولم أعثر على بيتيه التاليين فيما بين يدى من مراجع .

(٣) فاق بنفسه : مات ، والكشح ، ما بين الخاصرة والضلوع .

(٤) انظر المعارف ٥٣٥ .

(٥) عبد الله بن عمرو (بن الكواء) اليشكرى ، كان عالماً بالأنساب ، وفيه وفى إخوته يقول مسكين الدارمى :

تعال إلى بنى الكواء تقضوا بحكمهم بأنساب الرجـــال

كان من شيعة علي رضي الله عنه ثم خرج عليه بعد التحكيم ، ثم كان مع الشراة الذين حاربهم المهلب ، ترجمته فى الفهرست ١٣٣ ، الأغانى ٥٢/١٣ ، تهذيب التهذيب ٧٢/٥ ، شذرات الذهب ٩٧/٦ .

وممن اكتوى فبرِص : المكشوحُ المُرَادِيُّ . واسمه هُبَيْرة بن عبد يغوث ، وهو أبو قيسِ بنِ المكشُوح الفارسِ الرئيسِ . والمكشوحُ الذى يقولُ :

فما وَضَحِى من دَاءِ سُوءٍ عَلِمْتُهُ ولكنَّ كَيَّ النَّارَ فى الجِلْدِ مُوضِحُ

وفى بنى الكَوَّاءِ يقولُ الشاعر :

إلَى مَعْشَرٍ بيضِ الكُشُوحِ مَصَاقع عَلَيْهِم جُلُودُ النِّمْرِ خُنْسِ المَعَاطِسِ

وإنَّما قال مصاقع لأنَّهم خُطباء ، وابنُ الكوّاء يُذكَرُ فى الخُطَباء ، وفى النَّسابين ، وفى العُوران .

ولذلك لما قال له معاوية : فما تقولُ فى نفسك ؟ قال : أعورُ سمينٌ . كانوا يميلون إلى قول الخوارج ، وأما قول الشاعر : عليهم جلود النمر ... فإنما يعنى التبقيع والتفليس[1] الذى كان فى جلودهم من البياض ، وكانوا فُطْسا .

* * *

ومن البرصان ، عبد العُزَّى بن كعب بن سعد ، قال أبو نُخَيْلة واحد حُمَّان كقوم حُم[2] ، وإنما سمى حِمَّانَ لأنه كان أَلْطَع فكان يُحَمِّم شفتيه[3] . والتحميم : التسويدُ فى هذا الموضع ، ولذلك قال الشاعر فى أبَان بن عثمان بن عَفَّان فى أول ما ظهر به البياضُ ، قال :

---

(١) يقال جلد مفلس أى عليه لمع كالفلوس .

(٢) هكذا فى الأصل ، وهى عبارة مضطربة ، ولعل صحتها ما يلى : « ومن البرصان عبد العزى بن كعب بن سعد ، رهط أبي نخيلة الراجز ، وحمان بكسر الحاء واحد حمان كقوم حم » الخ ، انظر جمهرة الأنساب ٢٢٠ وفيها أن حمان ابن لعبد العزى ، وانظر فى ترجمة أبى نخيلة الشعر والشعراء ٥٨٣ ، وأمالى المرتضى ١/٥٨٠ .

(٣) انظر الاشتقاق ٢٤٦ .

لـه شفةٌ قـد حَمَّم الدهرُ بطنَها وعينٌ يَغُمُّ الناظرين احْوِلَالُها

وكان أحول أبرصَ أعرجَ، وبفالج أبَان يضربُ أهل المدينة المَثَل[١].

وكان فى بنى عثمان عُوارن وعُرجان وحُولان وبُرصان ، كان سعيدُ ابن عثمان أعور[٢] ، وكان أبَانُ أحول ، وقال مالك بن الرَّيْب[٣] :

وما كان فى عثمانَ عَيْبٌ علمته سوى أبنٌ فى نَجْلِهِ ثَمَّ أدْبَرَا

فلولا بنُو حَرْب لطُلَّتْ دماؤكم بُطونَ العَظَايا من كسيرٍ وأعْوَرَا

لأن بطن العَظَاية أبْرص .

* * *

وكان أيمن بن خُرَيْم[٤] لمكان الوَضَح الذى فى يده وأصابعه وشفتيه ووجهه يدلك هذه المواضع بالحُصِّ ، والحُصُّ هو الوَرْس ، ليكون أخفى للبياض ، فقال الأقيشر[٥] يهجوه بذلك :

يُعَالِجُ بالحُصِّ البَيَاضَ فَلَمْ يُصِبْ دواءً وما دَاوَاكَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَا

* * *

ومن البرصانِ السَّادةِ والفرسانِ القادة ، الربيعُ بنُ زِياد[٦] وهو

---

(١) انظر هذا فى المعارف ٥٧٨ .

(٢) كان سعيد قد وفد على معاوية بعد مقتل أبيه فولاه خراسان سنة ٥٦ هـ ففتح سمرقند وأصيبت عينه فيها ، ولما مات معاوية انصرف إلى المدينة فقتله أعلاج كان قد قدم بهم من سمرقند ، المعارف ٢٠٢ ، شذرات الذهب ٦١/١ .

(٣) انظر ديوانه ٤٧ ، ورواية الشطر الثانى : سوى نسله فى رهطه الخ .

(٤) سيأتى الحديث عنه مفصلا فيما يلى من الكتاب .

(٥) هو المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسدى ، لقب بالأقيشر لأنه كان أحمر الوجه ، وهو شاعر هجاء عالى الطبقة ، ولد فى الجاهلية وعاش عمراً طويلا ، وكان صاحب شراب ، وقد مات وهو سكران خنقاً بالدخان ، انظر معاهد التنصيص ٢٧٩/٢ ، سمط اللآلى ٢٦١ ، معجم الشعراء ٣٦٩ ، الأغانى ٢٥١/١١ .

(٦) ابن عبد الله بن سفيان بن ناشب العبسى ، أحد دهاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم فى الجاهلية وهو أحد الكلة من بنى عبس ، والكاملان الآخران هما أخواه عمارة الحفاظ أو الوهاب وأنس الفوارس ، مات سنة ٣٠ ق.هـ ، انظر كامل المبرد ١٣٣/١ ، والأغانى ١٩/١٦ ، المحبر ٢٩٩ .

أَحَدُ الكَمَلَةِ ، وهو كان قائدَ عَبْسٍ وعبدِ اللهِ بنِ غَطَفَانَ فى حَرْبِ دَاحِسَ ، وبنو زُهَيْرِ بنِ جُذَيْمة تحت لوائه ، وكان رَحَّالاً وكثير الوفاداتِ شاعراً ، وكان بالمُنْذِر خاصًّا وله نديماً، وكان الملكُ لا يشعرُ بالذى به من الوَضَح ، حتَّى قال لَبِيدُ بنُ رَبيعة[1] :

مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لاتَأْكُلْ مَعَهُ ... إنَّ اسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ[1]

وإنَّهُ يُدْخِلُ فيها إصْبَعَهْ ... يُدْخِلُهُ حتَّى توارى أَشْجَعَهْ[3]

كأَنَّما يَطْلُبُ شيئًا أَطْمَعَهْ[4]

قال : فلما تَرَكَ الملكُ مؤاكلتَهُ ومُنَادَمَتَهُ تجرَّدَ ثم عَدَا بين يديه ذاهباً وجائياً . فقال الملكُ [5] :

قَد قِيلَ ذلك إنْ حَقًّ وإنْ كَذِبُ ... فما اعتذارُكَ من شىءٍ إذا قيلاَ

وأنا لا أظنُّ هذا البيتَ كان قيل إلاَّ قبل ذلك اليوم .

* * *

قال : ومن البرصان الأُشرافِ المذكورين ومن آباء القبائل

---

(١) انظر القصة والأبيات فى ديوانه ٣٤٣ ؛ عيون الأخبار ٦٥/٤ ، فصل المقال ٨٢ ، مجالس ثعلب ٣٨٢ ، مجمع الأمثال ١٠٢/٢ ، الحيوان ١٧٣/٥ ، خزانة الأدب ٧٩/٢ .

(٢) ملمعة : أى فيها لمع من سواد وبياض وحمرة .

(٣) الرواية فى مختلف المراجع : يدخلها أى الأصبع لأنها مؤنثة على الأرجح ، وقد تذكر كما فعل الجاحظ هنا ، والأشجع جمعها أشاجع وهى العصبات أى العروق التى على ظهور الكف وتتصل بظهور الأصابع حتى تبلغ البراجم (مفاصل الأصابع السفلى) انظر المخصص ٦/٢ ؛ خلق الإنسان لثابت بن أبى ثابت ٢٢٦ ، وفيها البيت .

(٤) فى مختلف المراجع عدا مجالس ثعالب : ضيعه بدل أطمعه .

(٥) قال فى الخزانة ٧٨/٢ إن هذا البيت ضمن خمسة أبيات قالها النعمان ، وقد استشهد به سيبويه على أن كان تحذف مع اسمها بعد إن الشرطية والتقدير : إن كان ذلك حقا ، ويجوز فيه أربعة أوجه : رفعهما ونصبهما ورفع الأول ونصب الثانى وبالعكس ، وتقدير الرفع فيهما وهى الرواية الواردة هنا : إن وقع حق وإن وقع كذب أو إن كان فيه حق وإن كان فيه كاب ..إلخ .

والعمائر[١] ، يَرْبُوعُ بنُ حَنْظَلَةَ وإياه عَنَى أَوْسُ بن حَجَر حين قصد إلى تَقْريع عامرِ بنِ مالكٍ مُلاعبِ الأَسِنَّةِ ببعضِ الوقائع[٢] فقال :

كان بَنُو الأَبْرَصِ[٣] أَقْرَانَكُمْ ... فأَدْرَكُوا الأَحْدَثَ والأَقْدَمَا

إذ قال عمروٌ لبنى مالكٍ ... لا تَعْجَلُوا المِرَّةَ أَنْ تُحْكَمَا[٤]

واللهِ لولا قُرْزُلٌ إذ نجا ... لكانَ مَثْوَى خَدِّكَ المَخْرَمَا[٥]

نَجَّاكَ جَيَّاشٌ هزيمٌ كما ... أَحميتَ وَسْطَ الوَبَرِ المِيسَمَا[٦]

---

(١) العمائر : جمع عمارة وهى الشعبة من القبيلة .

(٢) الصحيح أن المقصود بذلك هو طفيل بن مالك أخو عامر ، فهوالذى فر فى وقعة ذى نجب على فرسه قرزل فعيره الشاعر بذلك كما سيأتى فى الأبيات التالية ، وكان من خبر ذلك اليوم أن بنى عامر بن صعصعة كانوا قد انتصروا فى يوم ذى جبلة على بنى يربوع بن حنظلة بن تميم وقتلوا رؤساءهم ثم استعدوا بعد ذلك لمعاودتهم واستئصال شأفتهم ، واستعانوا فى ذلك بحسان بن كبشة الكندى وهو ملك من ملوك اليمن ، إلا أن بنى يربوع استعدوا لملاقاتهم واستبسلوا فى المعركة حتى هزموهم ، وقتل حسان بن كبشة كما قتل من بنى عامر يزيد بن الصعق ، وعبيدة بن مالك بن جعفر وانهزم أخوه طفيل بن مالك على فرسه قرزل . انظر النقائض ٥٨٧/٢ ، وانظر الأبيات عدا الأخير فى ديوان أوس ١١٣ ، وانظر البيان والتبيين ٢٣/٢ ، والمحبر ٢٩٩ ، وخلق الإنسان لثابت بن أبى ثابت ٢١٤ .

(٣) بنو الأبرص : أى بنو يربوع بن حنظلة .

(٤) يشير بهذا إلى قول عمرو بن عمرو بن عدس رئيس بنى مالك : « يابنى مالك لا طاقة لكم بهذا الملك وما معه من العدد فخفوا من مكانكم هذا » وكان بنو مالك فى أعلى الوادى مما يلى مجىء جموع عامر بن صعصعة ومن معهم من جيش اليمن ، وبنو يربوع فى أسفله ، فتحولت بنو مالك حتى نزلت خلف بنى يربوع ، وصارت بنو يربوع مما يلى القوم والملك ، انظر النقائض .

(٥) فى مختلف المراجع : الأخرما بدل المخرما ، والأخرم فسره أبو عبيدة بأنه منقطع الكتف فى العاتق ، يريدلضربت به عنقك فوقعت على الأخرم ، وقال الأصمعى ، بل هو الأخرم من الأرضين وهو الأرض الغليظة .

(٦) قوله جياش : هو الشديد الجرى السريع كأنه مشتق من القدر إذا جاشت بالغلى ، أى أن هذا الفرس يجيش بجريه كما تجيش القدر بغليانها ، والهزيم كذلك أيضاً ، يقول : يجيش ويهزم يعنى يصوت صوتا كغلى المرجل وقوله : كما أحميت وسط الوبر الميسما : يعنى به السرعة ، يقول : هذا الفرس يلتهب فى عدوه كما يلتهب الميسم وهى الحديدة تحمى بالنار حتى تصير كالجمرة ثم توضع على جلد البعير علامة ، ويقول الأصمعى : معناه أنه سريع الجرى فسرعته كسرعة مر هذا الميسم فى جلد البعير ووبره ، انظر النقائض ٩٣٢/٢، ٩٣٣ .

باتوا يُصيبُ القومُ ضِيفَانَهُم[١] حتى إذا ما ليلهم أظْلَمَا
قَرَوْهُمُ شهباء ملمومةً مثلَ حريقِ النار أو أظْلَمَا[٢]
ففاتَ من قد فاتَ من عَامِرٍ رَكْضًا وقد أعجلَ أنْ يُلْجِمَا

* * *

ومن البرصانِ الرؤساءِ والأشرافِ الشُّعراءِ ، ومن الرَّحّالينَ إلى الملوك والحكام من العرب : ضَمْرَةُ بنُ ضَمْرةَ النَّهْشَلِيُّ[٣] ، وهو الذى لمّا رآه الملكُ نحيفًا ، قال : تسمعُ بالمُعَيْدِيِّ لا أنْ تَرَاهُ[٤] .

وزعم أبو عبيدة أنَّه أحد من حَكَمَ بالرِّشْوَة ، وهو الذى يقول[٥] :

بَكَرَتْ تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فى النَّدَى
مَهْلًا عليكِ مَلَامَتِى وعِتَابِى[٦]
أأُصُرُّهَا وبُنَى عَمِّىَ سَاغِبٌ
فَكَفَاكِ من إبةٍ عَلَىَّ وعَابِ[٧]

---

(١) الرواية فى مختلف المراجع : ضيفاً لهم .

(٢) هكذا فى الأصل وصحتها : أو أضرما ، كما ورد فى المراجع .

(٣) قال فى مجمع الأمثال ١/٣٩ ، كان أحد حكام تميم فى الجاهلية ، رابع أربعة : أكثم وحاجب بن زراة والأقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن ، غير أن ضمرة أخذ رشوة فغدر ، وانظر الاشتقاق ٢٤٤ وسمط اللآلى ٩٢٢ .

(٤) انظر القصة وسبب هذا القول فى مجمع الأمثال ١/١٣١ ، وقد كان ضمرة يسمى شقا لضؤولته ، فقال له الملك قولته تلك ، ولما وجده ذا بيان سماه ضمرة باسم أبيه ، فصار يسمى ضمرة بن ضمرة .

(٥) انظر البيتين فى أمالى القالى ٢/٢٧٩ ونوادر أبى زيد ٢ ، والأضداد لأبى مسحل ١/٣٤ ، والكامل للمبرد ٢/٨١ ، واللسان بكر وبسل ، والثانى فى المفضليات ٣٦٢ ، وورد بدون نسبة فى مجالس ثعلب ٤٦٨ .

(٦) فى الكامل : هبت بدل بكرت ، والرواية فى المراجع كلها : بسل أى حرام بدل مهلا .

(٧) أأصرها أى أأصر ضروع النوق لئلا يحلبها أحد ، وكان من عادتهم أن يصروا الحلوبات إذا أرسلوها إلى المرعى سارحة ويسمون ذلك الرباط صراراً ، فإذا راحت عشيا حلت تلك الأصرة وحلبت ، والساغب : الجائع ، والإبة : العار وما يستحيا منه ، والعاب والعيب واحد .

وهو الذى يقول [١] :

الآنَ سَاغَ لِيَ الشرابُ ولم أَكُنْ ... آتِى التِّجارَ ولا أَشُدُّ نَكَلُّمِى
وأَبَأْتُ يومًا بالنَّسَـــارِ بمثلِـهِ ... وأخذتُ يومًا فى حديث المَوْسِمِ [٢]
ومَسَسْتُ مَسًّا فى الرِّقَاقِ عَبَاءهَـا ... من بين عارفةِ السَّنَاءِ وأَيِّمِ [٣]
لحق الرِّمَاحُ بِبِعْلِهَـا فتركنَـهُ ... فى صَدْرِ مُعْتَدِلِ القَنَاةِ مُقَوَّمِ
والخيلُ من خللِ العُبَـارِ خَوَارِجٌ ... كالتَّمرِ يُنْثَرُ من جِرَاب الجُرَّمِ [٤]

وقال فيه الشاعر [٥] :

أَضَمْرَةُ تَرْجُو الأَبْلَقَ الاسْتَ والقَفَـا
وما مِثْلُنَـا فى مِثْلِهَـا لَكَ عاقِـــرُ

---

(١) قالها ضمرة يوم ذات الشقوق ، وكانت أسد وطيء وغطفان ولحقت بهم ضبة وعدى قد أغاروا على بنى عامر وانتصروا عليهم يوم النسار ، فغضبت بنو تميم وحلف ضمرة فقال : الخمر على حرام حتى يكون له يوم مكانه ، فأغار عليهم يو م ذات الشقوق فقتلهم ، وقال هذه الأبيات ، انظرها مع اختلاف فى ألفاظ الرواية والترتيب فى العقد الفريد ٢٤٨/٥ ، والأول والثانى فى حماسة البحترى ٤٤ ، والأول والشطر الثانى من الأخير مع صدر برواية أخرى تتفق مع رواية العقد فى سمط اللآلى ٤٣٥ .

(٢) الرواية فى العقد والحماسة : بالجفار بدل النسار ورواية الشطرة الثانية فى العقد : وأجرت نصفاً من حديث الموسم ، وفى الحماسة . وأخذت فضلا .

(٣) رواية الشطرة الأولى فى العقد : ومشت نساء كالظباء عواطلا ، وفيه : عارفة السبا بدل السنا ، ولعل ما هنا أصح ويكون مأخوذا من قولهم : هى حسنة المعارف أى الوجه ، ولعله يقصد الشابة الجميلة ذات السنا ليقابل بها الأيم .

(٤) الرواية فى العقد والسمط : حتى صبحت على الشقوق بغارة بدل الشطرة الأولى ، وفيه كالتمر ينثر من حرير الحرم وهى تحريف ، وفى السمط : من جريم الجرم ، وقال : الجريم من التمر المصروم ، وهو الجرام والصرام والجداد ، والعرب تشبه شن الغارات بنثر التمر .

(٥) هو سبرة بن عمرو الفقعسى ، كما ورد فى حماسة أبى تمام ٢٤ ، ومعجم البلدان ٤٩/٤ ولم يرد فيهما البيت الأول ، وقد ذكر ياقوت أن قراقر الوارد فى البيت الثانى قاع ينتهى إليه سيل حائل ، وتسيل إليه أودية ما بين الجبلين فى حق أسد وطيء ، وهو الذى ذكره سبرة فى قوله ، وقد عيره ضمرة بن ضمرة كثرة إبله وشجه فيها ثم ساق أبياتاً أربعة .

أَتَنْسَى دِفَـــاعِى عَنْكَ إِذْ أَنت مُسْلَمٌ
وقد سـال من جَمْع عليكَ قُراقِـــرُ[1]

* * *

قال أبو عبد الرحمن : من البُرْصِ الأشرافِ ، ومن الرُّؤَسَاءِ المتوَّجِينَ، مالكٌ ذُو الرُّقَيْبَةِ[2]، وهو الذى أخذ فِداء حَاجِبِ بن زُرَارَة وَغَصَب / الزَّهْدَمَيْن ذاك ، وكان حاجبٌ أسيرَ[3] الزَّهْدَمَيْن من بنى عَبْسٍ ، وفى مديح مالكٍ يقولُ المسيَّبُ بنُ عَلَسٍ[4] :

ولقد رأيتُ الفاعلينَ وفعلَهُمْ[5] فلـذى الرُّقَيْبَةِ مَالكٍ فَضْـــلُ
كَفَّـــــاهُ مُخْلِفَـــةٌ ومُتْلِفَـــةٌ وعَطَـــاؤُهُ مُتَخَـــرِّقٌ جَـــزْلُ[6]

* * *

واحتجوّا بشعر عَوْفِ بنِ الخَرِع فى الوَضَح الذى كان على ظهر

---

(١) فى الحماسة والمعجم : ذل بدل جمع ، وبعد هذا البيت فى باقوت قوله :

ونسوتكم فى الروع باد وجوهها يخلن إماء والإماء حرائر
أعيرتنـــا ألبانهـــا ولحومهـــا وذلك عار يابن ريطة ظاهـــر
نحابى به أكفاءنا ونهينهـــا ونشرب مـــن أثمانهـــا ونقامـــر

(٢) هو مالك بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وهو قد أسر حاجب بن زرارة سيد بنى تميم يوم شعب جبلة (انظر خبره بالتفصيل فى النقائض ٦٥٤ — ٦٧٨) أما الزهدمان فهما زهدم وقيس عند ابن الكلبى ، وزهدم وكردم عند أبى عبيدة ابنا حزن بن وهب بن عوير من بنى عبس بن بغيض ، وكانا قد أدركا حاجب بن زرارة ليأسراه فقال لهما : من أنتما ؟ فقالا : الزهدمان ، فقال : لا أستأسر الدهر لمولين ، فبينما هم كذلك إذ أدركهم مالك ذو الرقيبة ، فقال لحاجب : استأسر ، فقال : من أنت ؟ فقال : مالك ذو الرقيبة، فقال : أفعل فلعمرى ما أدركتنى حتى كدت أن أكون عبداً، ثم فدى نفسه فأعطى مالكا ألف بعير ، وأعطى الزهدمين مائة ، انظر إصلاح المنطق ٤٤٣ ، والنقائض ٦٦٩ ، والكامل للمبرد ١/٢٨٤ .

(٣) فى الأصل : أمير ، وهى تحريف .

(٤) البيتان التاليان فى الكامل ١/٢٨٤ جمهرة أشعار العرب ١١١ ، الشعر والشعراء ١٧٤ ، مع اختلاف فى ألفاظ الرواية .

(٥) فى الأصل : معاً .

(٦) المتخرق : المتسع ، وفى الكامل : متدفق بدل متخرق .

كفِّه ، حيث يقول[١] :

ولقد أراكَ وما تُؤَبِّنُ هَالِكًا ... عِدْلَ الأُصرَّةِ فى السِّدَادِ الأَكْرَمِ[٢]

حتى تروَّحت المَخَاضُ عَشِيَّةً ... فتُركْتَ مَخْلُوطًا مُخَاطُكَ بالدَّم

عبدٌ رضعتَ بثدِى ذاتِ رضاعةٍ ... مثل الرَّبَاءةِ بَظْرُها لم تُكْلَمِ[٣]

تبكى إليك إذا عرفت سِوَادَها[٤] ... كبُكَا الفقيرِ إلى الغَنِىِّ المُنْعِمِ

* * *

ومن البرصانِ الأَشرافِ المذكورين والفرسانِ المشهورين ، شيطانُ ابنُ عَوْفِ بنِ مَزْيد، لم يكن يوم مُبَايِض[٥] فارسٌ مثلُه ، وكان أَبرصَ على فرسٍ كثيرِ الأَوْضَاح ، فلما رجعتْ بنو تميمٍ عن تلك الوقعة لَامَهُم وقال : خرجتُم برؤساء ثلاثة إلى حيِّ حَرِيدٍ[٦] ثم جئتم منهُزمين ،

---

(١) لم أعثر من الأبيات التالية فيما بين يدى من مراجع إلا على البيت الأول فى المفضليات ٥٢٦ ، وورد فى ص ٧٣٣ منها منسوباً للأسعر ، وليس فيها حسب ما يبدو لى إشارة إلى وضع ما ، فلعل فى النص هنا نقصاً .

(٢) التأبين : مدح الميت بذكر مآثره ، والرواية فى المفضليات : فى السنام الأكوم بدل السداد الأكرم ، وفسرها بقوله : يريد أن أمه راعية فهى تعدله بالأصرة ، وواحد الأصرة صرار ، وهى جلود تجعل على أخلاف الإبل ثم تشد بالخيوط ، وقيل غير ذلك ، وعلى كل فهو يصفه بالحقارة وقلة الشأن .

(٣) فى الأصل : الربابة على عادة الناسخ فى كتابه الهمزة المفردة ، والرباءة مأخوذة من ربأ الشىء علا وارتفع ، والبظر : لحمة ناتئة فى حياء الدابة والمرأة ، ولم تكلم : لم تجرح .

(٤) السواد ، بضم السين وكسرها : المسارة .

(٥) مبايض بضم الميم وقيل بفتحها : موضع كان فيه يوم للعرب ، قتل فيه طريف بن تميم فارس بنى تميم ، قتله حميصيصة بن جندل ، وقتل فيه أبوجدعاء الطهوى ، وكان من فرسان تميم ، انظر معجم البلدان ٤٠٩/٤ ، مجمع الأمثال ٤٤٢/٢ ، كامل ابن الأثير ٢١٩/١ ، العقد الفريد ٢٠٨/٥ .

(٦) الحريد : المتنحى .

وقد قُتل منكم رَئِيسَان ، قالوا : واللهِ ما لقينا إلا شياطينًا[1] بُرْصًا على خيل بُلْق .

* * *

ومن البرصانِ والخطباءِ ، ومن الأَشرافِ الرؤساءِ ، قيسُ بنُ خارجَة ابنِ سِنان بن أَبي حارثة خطيبُ غَطَفَان ، وهو الذى لما ضَرَب بسيفه مُؤَخَّرةَ رَحْلِ أبيه خارجةَ بنِ سنان والحارثَ بن عوف الحَامِلَيْن ، وقال لهما : مالى فى هذه الحَمَالةِ[2] أيها العَشَمَتَان[3] ، قالا : فما عندك ؟ قال : عندى رِضَا كلِّ سَاخِطٍ . وقِرَى كُلِّ نَازِل ، وخُطْبَةٌ من لَدُنْ تطلعُ الشمسُ إلى أن تَغْرُبَ . آمُرُ فيها بالتَّوَاصلِ وأَنْهى فيها عن التَّقَاطُع . فلما خطب بتلك الخُطبة التى سُمِّيت العذراء ضربوا بها المثل[4] . فقال عَجْلَانُ بنُ سَحْبَان :

ولا كَأَخِى ذُهْلٍ إذَا قام قائلًا ولا الأَسْلَع الحمَّالِ حين يُجيبُ

فجعل قيسًا أيضاً حَامِلًا وضَرَبَ به المَثَل .

* * *

وقولهم : الأَسْلَعُ والأَبرصُ سواءٌ ، ولذلك قال جرير فى قتل أَنَسٍ

---

(١) هكذا فى الأصل وصحتها شياطين من غير تنوين لأنها ليست مصروفة كما لا يخفى .

(٢) الحمالة بفتح الحاء : الدية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم ، وقد كان خارجة بن سنان والحارث بن عوف قد سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، وتحملا الديات فى أموالهما ، ومدحهما زهير بأبيات كثيرة من بينها ما قاله فى معلقته :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(٣) فى الأصل : العبشميان ، تحريف ، والتصحيح عن الحيوان ، والعشمة : الشيخ الكبير الفانى المنحنى الظهر المتقارب الخطو .

(٤) انظر البيان ١/٣٤٨ .

الفوارسِ عَمْرَو بن عُدسٍ[١] ، وكان من المُشَهَّرين بالبرص :

هل تَذْكُرُونَ على ثَنِيَّةِ أَقْـرُنٍ أَنَسَ الفوارسِ حين يَهْوِى الأَسْلَعُ

وكانوا ثلاثةَ إخوة : الربيعُ الكاملُ وعِمَارَةُ الوَهَّابُ وأَنَسُ الفَوارِس بنى زياد وهم الكَمَلَةُ من بنى عَبْس ، وقيل لأُمِّهم[٢] : أَىُّ بَنِيكِ أَكْمَلُ ؟ قالت : أَنَسٌ ؛ لا بل عِمَارةُ ، لا بل الرَّبيع ، ثَكِلْتُهُمْ إن كنتُ أدرى أيُّهُم أكمل ، وهى التى قالت فى بعض الكلمة : ماحَمَلْتُهُ وُضْعًا ، ولا وضعتُه يَتْنًا ، ولا سَقَيْتُه غَيْلًا ، ولا أَبتُّه على مَأْقة[٣] .

* * *

ولما سمعوا بأن الأَسلعَ هو الأَبرص ، قالوا فى قول مُسَاوِرِ بن هند[٤] :

مِنَّا بنو بَدْرٍ ومنَّا هَـــاشِمٌ والحارِثَانِ ومَالِكٌ والأَسْلَعُ

فزعموا أن الأَسلعَ القَيْسىَّ كان أبرصَ ، وهذا لا يجب ، قد يجب أن يكون اسمه الأَسلع ويجب أن يكون ذا سَلعة ، ويجب أن يكون أبرصَ ولا بدّ من أن يكون على ذلك دليل ، إمَّا شعر وإمَّا حديث ،

---

(١) صحة هذا الاسم : عمرو بن عمرو بن عدس الدارمى فارس بنى مالك بن حنظلة ، وكان عمرو قد أغار على بنى عبس وأخذ إبلا وشاء ، ثم أقبل حتى إذا كان أسفل ثنية أقرن نزل فابتنى بجارية من السبى ولحقه انطلب فاقتتلوا ، فقتل أنس الفوارس بن زياد العبسى عمراً ، وانهزمت بنو مالك وارتد بنو عبس ما كان فى أيديهم من السبى ، فنعى ذلك جرير على بنى دارم فى بيته هذا انظره فى ديوانه ٣٤٩ ، والرواية فيه : تعرفون بدل تذكرون ، وشك بدل يهوى ، وانظره مع الخبر فى النقائض ٦٧٩ ، والعقد الفريد ١٧٩/٥ ، معجم الشعراء ٢١٠ .

(٢) هى فاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، وقد ورد قولها هذا برمته منسوباً لها فى مجمع الأمثال ٣٥٠/٢ مختار الأغانى ٥٠/٤ ووردت عبارة : ماحملته وضعاً الخ منسوبة لأم تأبط شراً فى كامل المبرد ٨٠/١ ، إصلاح المنطق ١١ ، العقد الفريد ١١٨/٦ ، الحيوان ٣٨٦/١ .

(٣) الوضع ويروى التضع : آخر الطهر ، ويتناً . أى لم تخرج رجلاه قبل رأسه ، والغيل : أى ما أرضعته وأنا حامل ، والمأقة : أى لم أبته باكيا .

(٤) مساور بن هند بن قيس بن زهير العبسى ، شاعر معمر ، قيل : ولد فى حرب داحس والغبراء وكانت قبل الإسلام بنحو خمسين عاماً ، وعاش إلى أيام الحجيج حتى توفى سنة ٧٥ هـ ، وكان أعور ، وكان هو وأبوه وجده شعراء فرسان . ويعد مساور من السابقين إلى الإسلام ، انظر معاهد التنصيص ٢٨٣/١ ، الشعر والشعراء ١٢٥ .

وإما أن يقول ذلك العلماءُ ، فإن جاءُوا مع ذلك بشاهدٍ فهذا أصحُّ للخبر وإن لم يأتُوا بشاهد فليس قولهم حُجّة .

* * *

وأما قولُ عَجْلَانَ : ولا كأخى ذُهْل . . . ، فإنمّا عَنَى دَغْفَلَ بنَ حَنْظَلَة الخطيب العلامة[١] ، غرق دَغْفَلُ يومَ دَوْلَاب حين عبر الناسُ فى دُجَيْلٍ مع حارثة بن بَدْرٍ الغُدَانِىِّ أيّام الأزارقة .

* * *

قال ابنُ الكلبىِّ : من البرصانِ الأَشرافِ ، سعدٌ الأَثْرَمُ بنُ حارثَة ابن لَأْمٍ[٢] أخو أوس بن حارثَة بن لَأْم[٣] ، وكان شَرِيفًا نَبيهًا ولكنَّ إفراطَ نبأ أخيه هذا غيره[٤] .

* * *

قال : ومن البُرْصَان الأَشراف ، المرقَّعُ بنُ صَيْفِىٍّ بنِ رَبَاح[٥] ، وأنشدوا قول الشاعر :

---

(١) النسابة ، كان عالما بالنجوم وأيام العرب ونسابة فذا يضرب به المثل فيقال : « أسلم من دغفل » وفد على معاوية وعنده قدامة بن جراد القريعى فنسبه دغفل حتى بلغ أباه الذى ولده ثم قال : وولد جراد رجلين أما أحدهما فشاعر سفيه والآخر ناسك فأيهما أنت ؟ فقال : أنا الشاعر السفيه وقد أصبت فى نسبتى وكل أمرى ، فأخبر فى بأبى أنت متى أموت ؟ فقال دغفل : أما هذا فليس عندى وقد أمره معاوية حينئذ أن يعلم ابنه يزيد ففعل ، غرق دغفل يوم دولاب وهى قرية من عمل الأهواز بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ سنة ٦٥ هـ ، انظر الأغانى ١٤٥/٦ — ١٤٧ ، مجمع الأمثال ٥٤/٢ ، ٣٤٦ ، معجم البلدان ٦٢٢/٢ .

(٢) انظر المعارف ٥٨١ .

(٣) الشيبانى ، كان سيد قومه ورئيسهم ، ذكر السجستانى فى المعمرين أنه عاش مائتين وعشرين عاما حتى هرم وذهب سمعه وعقله ، وقال ابن الكلبى : بلغنا أن بنيه ارتحلوا وتركوه فى عرصتهم حتى هلك فهم يسبون بذلك إلى اليوم ، ابنه جرير له صحبة وابن ابنه عروة بن مضرس بن أوس له صحبة كذلك انظر الإصابة الترجمة ٥٦٦ ، جمهرة الأنساب ٣٩٩ .

(٤) هكذا فى الأصل ولعلها غبره أى ذهب به ، والمقصود على كل حال أنه أخمل ذكره .

(٥) الحنظلى ، من التابعين روى عن جده رباح وعم أبيه حنظلة بن الربيع وأبى ذر وابن عباس ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، انظر تهذيب التهذيب ٨٨/١٠ .

اللهُ يعلمُ والأقوامُ قد عَلِمُوا أنَّ المرقعَ مرقوعٌ بأوْضَاح

الوضَحُ وَضَحُ الصُّبْح ، يقال : أبْيَنُ من وَضَحِ الصُّبْح ، والوَضَحُ من الدِّرْهم[1] ، والوَضَحُ اللَّبَن ، قالوا : جَيِّد الوَضَح ، والوضح كنايةٌ عن البياض ، والبياضُ كنايةٌ عن البَرَص ، وأوضاحُ الخيل ما فيها من البَيَاضِ ، وحَلْيُ الفِضَّةِ تُسَمَّى أوضاح ، قال كُمَيْتٌ :

ولَاحَ من الكِعَـابِ مُخَبَّآتٌ من الأوْضَاحِ والقَدَمِ الخَضِيب

* * *

ومن البُرْصان الأشرافِ : عامرُ بنُ حَوْطِ الأَبرَشُ[2] ، قيل له ذلك كما قيل لجَذِيمة : الأَبْرَشُ بعد أن كان يُقال له الأبرص ، إكبارًا له وكنايةً عما يكره ، وهو أخو عبدمناة بن بكر بن ضَبَّة وهو القائلُ :

ولقـد علمتُ لتـأْتِيَنَّ عَشِيَّةً ما بعدها خوفٌ عَلَيَّ ولا عَدَمْ

وَوَلِجْتُ بيت الحيِّ ليس بباطلٍ ما إن أُبَالِي مَنْ تَقَوَّضَ وانْهَدمْ[3]

وليس فى هذين البيتين دليلٌ على أنه كان أبرص إلا أن رواة أشْعَارِ بنى ضبة زعموا ذلك . وأنشدنى جعفرٌ الضَّبِّىُّ بيتًا كان يجعله دليلًا على بَرَصِه ، وهو بيتٌ لا يقطع الشهادة ولكنه يَتْرُبُ إلى ما قالوا وهو قوله :

لـو كان ينجُو من الآفـاتِ ذو كَرَمٍ كان ابنُ حَوْطٍ مكانَ الشَّمْسِ والقَمَرِ

* * *

(١) أى من معانيه : الدرهم ، فالوضح هو الدرهم الصحيح .

(٢) فى الأصل ابن خوط تحريف ، وهو عامر بن حوط بن أبى هند بن المعدل بن الحزن بن مازن ، المعروف بالأبرش الضبى ، انظر ترجمته والبيتين فى معجم الشعراء ٣٤ ، وانظر البيتين فى حماسة أبى تمام ٢١٧ .

(٣) الرواية فى المرجعين السابقين : ماتقوض بدل من تقوض ، ورواية الحماسة هذا البيت :

وأزور بيت الحى زورة ماكث فعلام أحفل ما تقوض وانهدم

ومن البرصان السادةِ والأَشرافِ الخطباء ، والفرسان المذكورين والخوارج المقدّمين ، ابنُ الفُجَاءةِ[١] وكذلك كان ابنه وكذلك كان أخوالُ أبيه ، لا يُعْرف فى البَرَصِ أعْرَقُ من ابنِ[٢] قَطَرِىٍّ المذكور فى هذا الكتاب ، فإنَّه المقابَلُ المدابَرُ[٣] والمُعِمُّ المخول ، لأَنَّ أخوالَهُ بنو الحَبْنَاءِ وأعمامه آل الفُجاءة .

قال أبو عبيدة وأبو الحسن : خرج جُرْمُوزٌ المازنىُّ إلى قَطَرِىِّ بن الفُجَاءةِ وهو بين الصَّفَّيْن فقال : بلغنى أنك تشترى السيفَ بعشرين ألفَ درهمٍ وأكثر ، قال : [نعم][٤] ، قال : أفلا أبعثُ إليك ببنىَّ تَجْبُرُهُمْ وتُغْنِيهم ؟ قال قطرىٌّ : إن بعثتَ إلىَّ بهم ضربتُ أعناقَهُم وبعثتُ إليك برءُوسهم ، قال جُرْمُوز : يا عجبًا ! بَنُوك وعيالُك فى مَنْزِلى بالبصرة أُمُونُهم وأبعث إليك بِبَنِىَّ تضربُ أعناقهم ! قال قَطَرِىٌّ : إنَّ الذى صنعتَ بعيالى تَرَاهُ فى دِينِك ، والذى أصنع بعيالِك شىءٌ أَراهُ فى دينى ، قال له جُرموز : هل أصبتَ بعدى ولداً ؟ قال : نعم ، قال : فدعا بغلام شابٍّ على بِرْذَوْنٍ ، فقال جُرموز : لعلك أفسدتَه بشىءٍ من هذه الأَعاجم ومن هذه السّبايا ؟ قال : معاذَ الله ، أُمُّه الوَجْنَاءُ بنت الحَبْناءِ ، ثم قال : يا جرموز ! إن به العلامةَ التى

---

(١) هو قطرى بن الفجاءة المازنى ، زعيم الخوارج الكبير ، خرج زمن مصعب لما ولى العراق وبقى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة ، وكان الحجاج بعد قتل مصعب يرسل إليه الجيوش جيشا تلو جيش وهو يستظهر عليهم إلى أن قتل سنة ٧٨ هـ ، انظر ابن الأثير ١٧١/٤ وفيات الأعيان ٢٥٥/٣ ، المعارف ٤١١ .

(٢) لعل صحة هذه الكلمة ، أبوه لا ابنه ليطرد المعنى فى السياق .

(٣) فى الأصل : المقاتل والصحيح ما أثبت ، ومعنى المقابل المدابر : محض الأبوين كريمهما .

(٤) ليست فى الأصل .

بنا أهلَ البيت — يعنى الوَضَح — يقول : إن رأيته فاعْرِفْه ، وهو جرموز بن الفجاءة أخو قطرىٍّ بن الفُجاءة .

* * *

قالوا : وكان الأُقَيْشِرُ الأسدىُّ أبرصَ ، ولذلك سَمَّوْه الأَقيشر[1] ، وكان مع ذلك يهجو البُرصان بالبَرَص ، وقد فعل ذلك بأيمن بن خُرَيْم وغيره ، وكان الأقيشرُ يَلعَبُ بالحَمَامِ ويُشْرِفُ فى جوفِ منزل أبى الصَّلْت الثَّقِفى ، وكان إذا طير الحمامَ يَصْفِرُ بفيهِ ويُصَفِّقُ بيديه ، وإن سقط فرخٌ على حائطِ جارهِ رماه ، فقال أبو الصلت :

بَطْنَ العَظَايةِ كم تمْكُو على شَرَفٍ
وكم تُرَاجِمُ جَارَ البيتِ من كَثَب[2]

فالمَكْوُ : صَفِيرٌ أو شبيهٌ بالصَّفير ، وكان من عمل أهْل الجاهلية ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وما كان صَلَاتُهُمْ عند البيتِ إلَّا مُكَاء وتَصْدِيَة﴾[3] ، وقد ذكر غيره المَكْوَ حيث يقول :

تمكُو فَرِيصَتُهُ بِشِدْقِ الأَعْلَمِ[4]

والمكْوُ : شىءٌ بين النَّفْخِ والصَّفِيرِ ، لأنَّه لما طعنه نفخ بالدَّم ، فخرج منه الدَّمُ مكانه .

---

(١) سبقت ترجمته فى صفحة ٥٨ .

(٢) الشرف : المكان العالى ، والمراجمة : القذف بالحجارة .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٣٥ .

(٤) عجز بيت لعنترة العبسى ، صدره .

وحليل غانية تركت مجدلا

ديوانه ٢١٧ ، البيان والتبيين ١/١٢٣ ، الحيوان ٣/٣٠٩ ، ٦/١٥٥ ، والرواية فيها : كشدق بدل بشدق . والفريصة : لحمة فى وسط الجنب عند منبض القلب ترتعد عند الفزع ، وهى تصفر إذا جرحت وخرج الدم كله لأنه يخرج بعد الدم ريح ، والأعلم : الجمل لأنه شقوق الشفة العليا .

قال : وكان بالحَكَم بن أبى العاص[١] بياضٌ ، ولذلك حين اطَّلع فى منزل النبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « من يَعْذِرُنِى من الوَزْغَةِ[٢] » .

وقال حسّانُ أو عبد الرحمن بن حسّان أو سعيد بن عبد الرحمن ابن حسّان[٣] للحكم وأولاده وبنى عثمان :

بُطُونَ العَظَايَا سَرْعَ ما قَدْ نَسِيتُمُ
بموسم أهـل الجَمْعِ لَطْمَةَ أَسْعَدِ

وللنصف الثانى من هذا البيت تفسيرٌ يدخلُ فى المثالب ، سمعتُ الأصمعيَّ وسأله رجلٌ عن بعض المثالب [يقول] : إنّي واللهِ ما أقول إني لا أُحْسِنُها ، ولكنْ أَدَعُها تَحَرُّجاً ، ولكنْ ـ واللهِ ـ إنَّ عَلَّمَنِيهَا اللهُ قَطُّ .

قال أَبو الحسن وأَبو عبيدة : قال الزُّبَيْر لعُثْمانَ بن عَفَّان فى شأْن ابنه عبد الله : إنى واللهِ ما أَلِدُ العُورانَ والعُرْجَانَ والبُرْصانَ ولا الحُولَان .

* * *

قال : ومن البرصانِ أَبو هَوْذة بن شَمَّاسٍ البَاهلىُّ أحد بنى قُتَيْبة ، قال أَبو الحسن ، قال معاويةُ يوماً : واللهِ لهممتُ أَن أَمْلأَ سفينة من

---

(١) الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : كان يطلع من شق الجدار على رسول الله ، وقيل كان يحاكى حديث الرسول ومشيته ويتخلج ، أسلم يوم الفتح ونفاه الرسول إلى الطائف ، ثم أعاده عثمان وأعطاه مائة ألف درهم توفى سنة ٣٢ هـ . انظر الإصابة الترجمة ١٧٧٦ ، المعارف ٣٥٣ .

(٢) ذكر ابن الأثير فى النهاية ١٨١/٥ ، أن الحكم بن أبى العاص كانت به رعشة وهى معنى الوزغ (بتسكين الزاى) الوارد فى الحديث ، وليس الوزغ بالمعنى الذى قصده الجاحظ هنا .

(٣) من المعروف أن شعر حسان بن ثابت رضى الله عنه يختلط بشعر نجله وحفيده ، وثمة أبيات يصعب الجزم بنسبتها إلى أحدهم كما تشير عبارة الجاحظ هنا ، هذا ولم يرد البيت التالى فى ديوان حسان ، كما لم أعثر عليه فى غيره من المظان ، والأقرب أن يكون لعبد الرحمن ابن حسان فى هجاء عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص ، فقد كان الرجلان مرتبطين بصداقة وطيدة ثم تقاطعا بسبب صلة أحدهما بزوجة الآخر ، انظر هذا فى خبر طويل فى الأغانى ١٢٠/١٥ .

باهلةَ فأَبْعَثُ بها إلى اليَمِّ ، فإذا توسّطوا غَرَّقْتُهم ، قال : فقال له أبو هَوْذَةَ بنُ شَمّاس : إذاً مارَضِينَا بَعَدَدِهِمْ من بنى أُمية ، قال : اسكت أَيُّها الغرابُ الأَبْقَع ، فقال هوذةُ : إن الغرابَ ربما مَشى إلى الرَّخْمَةِ[١] حتى ينقرَ عيْنَها . فلما كان بعد ذلك قال له ابنُه يزيد : هلاَّ قَتَلْتَه . ثم إنَّ معاوية أرسلَهُ فى بعض البُعوث فقُتِل ، فقال معاويةُ ليزيد: هذا أخى وأعنى[٢] ، قال أصمُّ باهلة[٣] فى شَمَّاسِ بنِ هَوْذَةَ بنِ شمّاس :

أَشَمَّاسُ لو كانتْ صِحَاحاً جُلودُكُمْ عَـذَرْتُ ولكنَّ الشآمَ أَرْقَطُ

فبهذا البيتِ حَمَلَ بَعْضُ الناسِ كُلَّ من قيلَ فى الشَّعْرِ إنه أرقط أنه أبرص ، وليس ذلك بالواجب ، يقولون حُمَيْدٌ الأَرْقط[٤] وهو حُمَيْدُ بنُ مالك الرَّاجز ، ولم يزعم أحدٌ أنه كان أبرص ، وخلاَّدُ ابنُ يزيدَ الأَبرص[٥] ولم يكن بأَبرص ، وأُمُّ جميلٍ الرقْطاءُ صاحبةُ المغيرة بن شعبة[٦] ، ولم يَزْعُم أحدٌ أنَّها كانت بَرْصَاء ، وعبيدُ الله ابن زياد كان أرقط وقد جاء ذكره فى الشعر .

---

(١) الرخمة: طائر كبير غزير الريش، له جناح طويل مدبب يبلغ طوله نحو نصف متر.

(٢) انظر الخبر فى الحيوان ٤٢٧/٣ ، وفيه : هذا أخى وأصوب .

(٣) هو عبد الله بن الحجاج بن عبدالله بن كلثوم من بنى ذبيان بن جنادة بن معن بن أعصر شاعر خبيث ، له قصائد يهجو فيها الفرزدق ، وللفرزدق شعر يرد فيه عليه ، انظر المؤتلف والمختلف ٤٤ ، والنقائض ١٠٢٧ .

(٤) حميد الأرقط ، شاعر راجز إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كان معاصرا للحجاج ابن يوسف ، واشتهر بشدة البخل ، انظر معجم الأدباء ١٣–١٥ .

(٥) خلاد بن يزيد الباهلي البصري ، المعروف بالأرقط ، وهي الكلمة المناسبة للسياق في النص،صهر حبيب بن يونس النحوي ، كان عارفاً بالقبائل واشعارها ، انظر فهرست ابن النديم ١٥٦ ، الأغاني ١٤٨/٦ .

(٦) هى أم جميل بنت عمر التى رمى بها المغيرة بن شعبة بالكوفة ورآه أربعة من الشهود فى وضع مريب معها وكانت تختلف إليه فى حوائجها فيقضيها لها ، وكانت رقطاء الجسد من آثار جدرى ، انظر خبرها بتمامه فى ترجمة المغيرة بن شعبة فى الأغانى ٩٥/١٦– ١٠٠ ، وكتاب المثالب لابن الكلبى ١٢١ .

والرقط فى البراذين والدَّجَاج والحَيَّاتِ والسَّمَك ، ويُوصف به قميص الحمار ، قال الشاعر :

كأنَّ دَجَاجَهُمْ فى الدَّارِ رُقْطاً وفُودُ الرُّومِ ترفُل فى الحريرِ[1]

وقال حسانُ بن ثابت إن كان قاله[2] :

بنى أســـدٍ ما بالُ آلِ خُوَيْلِدٍ يَحِنُّونَ شوقاً كل يوم إلى القِبْطِ[3]

إذا ذُكِرَتْ قَهْقَاءُ حَنَّوْا لذكْرِهَا وللرَّمَثِ المَقْرُونِ والسَّمَكِ الرُّقْطِ[4]

وهذا الشعر كُفر ، لأن خديجةَ الواسطة[5] من آل خويلد ، والزُّبَيْرُ ابن العَوَّام كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزُّبَيْرُ ابنُ عَمَّتى وحَوَارِيِّ من أُمتى » . وحسان لم يكن كافراً .

* * *

وفى الحياتِ الرُّقطُ وغيرِ الرُّقط ، فأما الوَزَغُ[6] والعَظَاءُ فإنَّ الرَّقْطَ

---

(١) البيت فى الحيوان ٢/٢٦٠ ، ٣٥٦ ، ورواية الشطر الثانى فيه بنات الروم فى قص الحرير ، وتتفق رواية نهاية الأرب ١٠/٢٢٦ مع ما هنا ، وفى اللسان : كأن دجاجها فى الدار ... إلخ .

(٢) ورد البيتان فى ديوان حسان ٢٣٩ ، وورداً من غير نسبة فى كتاب المثالب لابن الكلبى ٧٨ ، وفيه : قال الهيثم ، قال معروف : ومن أدعياء بنى أسد بن عبد العزى العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، بلغنا — والله أعلم — أنه نبطى من أهل قهقاء ، ويزعمون أن أمه مازنية مازن هوازن .

(٣) رواية الشطرة الأولى من هذا البيت فى المثالب :

لقد أصبح العوام فينا ورهطه

وفيه : النبط بدل القبط . والنبط جيل ينزل لون البطائح بين العراقين .

(٤) الرمث بفتح الراء والميم : خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب فى البحر .

(٥) الواسطة : أى الجوهرة الثمينة التى توضع فى وسط العقد .

(٦) الوزغ : جمع وزغة وهى سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .

فيها عامّ ، وأما سربالُ الحمار فكما قال معاوية بن أوس[١] :

وزِقٌّ سَبَأْتُ لَدَى تاجرٍ تَمَلَّأُ ، كالرَّجُل الأَسْحَمِ[٢]
ضربتُ بِفيهِ عَلَى نَحْرِهِ وقائِمُهُ كيد الأَجْذَمِ[٣]
يرى العارَ فى جلده واضحاً وسِرْبَالُهُ رَقَطُ الأَرْقَمِ

فليس يجب لقولهم : فلان الأَرقط أن يكون أبرصَ ، إلاَّ أن يكونَ عليه شاهدٌ من شعر أو مَثَلٍ أو حديث ، أو يقول ذلك بعضُ الثِّقاتِ من العلماءِ فيكون مقبولا .

* * *

وربما سَمَّوا الأَبْقَعَ[٤] ثم يصغرون ذلك فيقولون : بُقَيْعٌ ، من ذلك حديث يزيد بن عياض بن جَعْدَبَةَ الليثيِّ ، قال : أراد عبدُ الله بن جعفر[٥] أن يَفِدَ إلى عبد الملك وعلى المدينة أَبَانُ بن عثمان ، فأرسل إليه بُدَيْحًا[٦] ليستأذنَهُ ، فقال أَبَان : فليبعثْ إلى بجاريته فلانة ، فرجع إليه فأخبره فقال : أمّا الجاريةُ فلا ولا كَرَامة ، وقال له : ارجع إلى بُقَيْع فقل

---

(١) معاوية بن أوس بن خلف بن بجاد بن كليب بن يربوع بن حنظلة التميمى ، وهو ابن أخى حارثة المرى لأمه ، كذا ذكره المرزبانى فى معجم الشعراء ٣٩٢ ، وأورد له خمسة أبيات من القصيدة التى منها هذه الأبيات الواردة فى النص ، وقد ورد الأولان فى فخر السودان على البيضان ١٨٨ .

(٢) الزق بالكسر : السقاء ، وسبأت ، اشتريت ، تملأ ، ورد هذا الفعل دون همز فى الأصل ولا يستقيم معه الوزن ، وراويه المرجع السابق : لدى متجر ... أسيود بدل تملأ .

(٣) القائم : مكان القبضة من الوعاء وغيره . والأجذم : المقطوع اليد .

(٤) البقع : سواد وبياض فى الجلد ، وهو للطير والكلاب ، كالبلق بالنسبة للدواب .

(٥) ابن أبى طالب ، أول من ولد من المسلمين بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها ، وكان كريما يسمى بحر الجود ، توفى سنة ٨٠ هـ ؛ الإصابة الترجمة ٤٥٨٢ ، فوات الوفيات ٢٠٩/١ .

(٦) مولى عبد الله بن جعفر ، كان يقال له بديح المليح ، مغن له صنعة يسيرة ، وإنما كان يغنى أغانى غيره ، وقد روى الحديث عن عبد الله بن جعفر ، ترجمته فى الأغانى ١٧٤/١٥ .

له : أمّا الجارية فلا ، فقال أبَان : فليبعث إلىّ بغلامه الزّامر ، قال عبد الله : نعم وهو يشبهه فأذن له فوفد إلى عبد الملك .

* * *

ومن البرصانِ الأَشراف من الملوك ، جَذِيمةُ بنُ مالك صاحبُ الزَّبّاءِ وقَصيرٍ[1] ، وكان يقال له جَذِيمة الأَبرص ، فلما مَلَكَ قالوا على وجه الكناية : جَذِيمَةُ الأَبرش ، فلما عَظُم شأْنه قالوا : جذيمة الوَضّاح ، ولم يقولوا : جذيمة الأَوضح لأَنهم يَضَعُون هذا الاسمَ فى موضع الكناية عن الأَبرص ، وذلك كثير ، وليس فى الأَرض أَبرصُ يقال له الوَضّاحُ غيرَ جَذِيمة ، ومن يقال له الأَوضح كثير ، والكناية إذا طال استعمالهم لها صارت كالأَوضاح .

فمن ذلك أَنهم كَنوا عن الفَرْج فقالوا : كَشَف علينا مَتاعَه ، فصار المتاعُ والفَرْجُ سواء ، والفَرْجُ والقُبُلُ والدُّبُر كلُّه أَيضا كنايات ، وكذلك الخَلَاءُ والحُشُّ والغَائط كلها كنايات ، وكذلك الترابُ والزِّبْل والنَّجْوُ كنايات ، والاسم الخُرْءُ وجمعه خُرْءان[2] .

وقالوا فى الكناية : فلان يدعو إلى نفسه ، فلما طال ذلك وكثر قام فى القبح مقام الأَول .

---

(١) جذيمة بن مالك بن فهم بن تيم الله التنوخى القضاعى ، ثالث ملوك الدولة التنوخية فى العراق ، جاهلى عاش عمراً طويلا ؛ وكان أعز من سبقه من ملوك هذه الدولة ، وهو أول من غزا بالجيوش المنظمة ، وأول من عملت له المجانيق فى الحرب من ملوك العرب ، طمع إلى امتلاك الشام وأرض الجزيرة فغزاها ، وقتل ملكها أبا الزباء عمرو بن الظرب ، ولكنها استطاعت الثأر منه فى قصة مشهورة ، انظر كامل ابن الأثير ١١٩/١ ، معجم البلدان ٣٧٩ ، مجمع الأمثال عند قولهم العصا من العصية .

(٢) فى الأصل : الخرو وجمعه خروان .

وقالوا[١] فى الكناية عن قولهم زَنَتْ فُلانة : قَحَبَتْ ، والقُحَابُ : السُّعالَ ، وقال الشاعر فى شاةٍ له :

وإذا ما قَحَبَتْ واحـــدةٌ[٢] جَاوَبَ المُبْعِدُ منها فَخَضَفْ[٣]

فكأنهم كانوا فى التقدير يضعون سعلت مكان زنت ، فلما طال ذلك صار قولهم قحبت أقبح من قولهم زنت .

* * *

وربما قيل للأبرص : أَبْرَش وأقشر وأرْقَط وأبْقع ومُبْقَع وبُقَيْع ومُوَلَّع ومُرَقَّع ، وبكلٍّ ذلك جاء الشعر ، قال السيِّدُ الحِمْيَرِىُّ وكان إذا قضى وطره من الكلام لم يكن يَحْفِل بما وراء ذلك ، والسيدُّ حِميرىٌّ ، وهو السَّيِّدُ بن محمد[٤] ويُكنَّى أبا هاشم ، ومولده بِعُمَان ومنشأه بالبصرة ، ومات فى خلافة الرَّشيد — قال فى هجائه أبا بكْر وعُمر[٥] وعبد الله بن عُمر ولغيرهم من الصحابة :

فبُعْداً وسُحْقًا لتلك الوجُـــو هِ للخبتِ[٦] والعَـدْلِ والأَبْرَشِ

---

(١) انظر النص التالى مع شئ من الزيادة والتفسير فى الحيوان ١/٣٣٤ .

(٢) زاد الناسخ كلمة وزنت على الأصل ، ولم ترد فى الحيوان لأنها تكسر وزن البيت وتفسد المعنى المقصود توضيحه .

(٣) خضف : ضرط ، وفى الأصل : فحصف .

(٤) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى ، الملقب بالسيد ، وعرف بتشيعه واعتقاده مذهب الكيسانية الذين يقولون بإمامة محمد بن الحنفية ، كانت تلقى له وسائد فى مسجد الكوفة يجلس عليها ، وكان من أكثر الناس شعراً ، ولكنه خمل ذكره ومات شعره لما كان يفرط فيه من سب صحابة الرسول وأزواجه ، ولد سنة ١٠٥ وتوفى سنة ١٧٣ هـ ، انظر الأغانى ٧—٢٣/٢ ، العقد الفريد ٣/٤٠٦ .

(٥) طمست هاتان الكلمتان عمداً فى الأصل ، فلا تقرءان إلا بصعوبة .

(٦) الحرف الأول من هذه الكلمة غير منقوط فى الأصل ، فنقرأ : الحبت ولم يرد له معنى فى العربية ، فلعله الجبت بمعنى الساحر أو الكاهن ، أو الخبت بمعنى الخاشع المتواضع .

. . . . [1] صاحِبه الظَّالِمَيْنِ وعجْلِهمـــا ذلكِ الأَرْقَشِ
فيـــا نفسُ حتَّى متى تُلْيِطِينَ [2] عَلَى الخائنِ الأَوَّلِ المُرْتَشِي

ثم قال :

فهـــذا ولا قَوْلُ نُعْمَانِهِمْ ولا قَوْلُ سُفْيَانَ والأَعْمشِ

أما العلماءُ فلم يقُل أحدٌ منهم إن أبا بكر كان أبرش وكذلك عمر ، ولا قال أحد منهم : إن عبد الله بن عمر كان أرْقش ، وهو الذى سماه العِجْل ، وكان شديد الأُدْمة ، أتاه ذلك من قبل أخواله آل مظعون[3] ومن العجب خَبَرُ ضَبْرٍ[4] الأعمش مع أبى حنيفة وسفيان وهذان من المرجئة ، والأَعمش من الغالية .

* * *

وقال ابنُ عَنْقَاء الفزارىّ[5] فى المُرَقِّعِ بن ذى الرأسين ، وهو أبو شَوَّال بن المرقِّع :

فقلتُ لشَوَّالٍ تَوَقَّ ذُبَابَـــهُ ولا تَحمْ أنفاً أن يَخِيمَ مُرَقِّعُ

* * *

وقال أبو عاصم فى أيمن بن خريم — فيما أظن — :

فأَرغمَ اللهُ أنفاً أنت حاملـــه وزاد جلدَكَ فى تسفيعـه بُقَعَا
جلدٌ تَسَرْبَلَ ثَوْبَ الذُّلِّ ظَاهِـرُهُ واستبطَنَ اللُّؤْمَ حتى ضاق فانْصَدَعَا

---

(١) كلمة محذوفة فى الأصل .
(٢) تليطين : تلتصقين وتحبين .
(٣) انظر المعارف ١٨٤ .
(٤) الضبر : الجمع والشد .
(٥) هو قيس بن بجرة الفزارى ويعرف بابن عنقاء ، شاعر فحل من فحول غطفان ، وهو أحد بنى لؤى بن شمخ بن فزارة ، انظر المؤتلف المختلف ١٥٨ .

قالوا : ومن البُرصان ثم من بنى ضبة ، عامرٌ الأَبرش[١] ، وأجمعوا على أنه كان أَبرصَ ، وأن الأَبرشَ كان كناية .

* * *

ومن سُمِّىَ الأَبرش ولم يكن أَبرصَ ، الأَبرشُ الكلبىُّ ، وهو سعيدُ ابن الوليد[٢] وكنيتُه أَبو مُجاشع ، وكان أَخصَّ الناس بهشامٍ[٣] وأَغْلَبَهُم عليه ، وقد كان به بُرَشٌ[٤] وكانت فيه عفَّة ولم يقلْ أَحدٌ من أَجْلِ أَنه كان يُدعى الأَبرش أَنه كان أَبرص .

* * *

ومنهم البَرْشَاءُ أُم قيس بن ثعلبة وأُخته تسمى الجَذْماء[٥] ، فزعم بعض الناسِ أَنَّها كانت بَرْصاء ولم يأْتِ على ذلك دليل .

وذكر سُحَيم بن حفص[٦] : أَن الجَذْماء كانت ضَرَّة البَرْشاء ،

---

(١) هو عامر بن حوط الأبرش الضبى ، وقد مر ذكره فى ص ٦٨ .

(٢) ذكر الجاحظ فى البيان والتبيين ١٣٩/٢ أن اسمه سعيد بن حسان ، وذكر ابن حزم فى الجمهرة ٣٥٨ أنه سعيد بن بكر بن عبد قيس بن الوليد .. إلخ ، وقال : كان وزيراً لهشام بن عبد الملك .

(٣) يروى الجاحظ فى البيان ٣٤٥/١ أنه لما أفضت الخلافة إلى هشام سجد وسجد من كان عنده من جلسائه والأبرش شاهد لم يسجد ، فقال له : ما منعك أن تسجد يا أبرش ؟ قال : ولم أسجد وأنت اليوم معى ماشياً وغدا فوق طائرا . قال : فإن طرت بك معى ؟ قال : أتراك فاعلا ؟ قال : نعم ، قال : فالآن طاب السجود .

(٤) البرش : بضم الباء وفتح الراء فى شعر الفرس نكت صغار تخالف لونه ، وبياض فى الأظفار ، ولقد نفى الجاحظ فى عبارته البرص من الأبرش الكلبى وأثبت له البرش ، وعلى هذا فتسميته بالأبرش على سبيل الحقيقة وليس على سبيل الكناية كما فى جذيمة الأبرش الذى سبق ذكره .

(٥) هو قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل ، والبرشاء اسمها رقاش بنت الحارث بن القين بن غنم بن تغلب ، والجذماء اسمها أسماء بنت جل ، انظر جمهرة الأنساب ٣١٤ .

(٦) عالم بالأخبار والأنساب يذكره الجاحظ فى كتبه كثيراً ، توفى سنة ١٩٠ هـ ، الفهرست ١٣٩ .

وأنها رَمَتْ البَرْشَاء بجمرٍ كان فى يدها فبرشَ جلدُها من النار[١] ، وقال بعضهم : بل إنما قيل ذلك لها من مخافة العين عليها ، كما يُسَمُّون الرجلَ الجميل : شيطان ، والغرابَ النافذَ البصرِ : الأعور ، والأرض السَّبَارِيت[٢] : المفازة ، والنَّهيشَ : السَّليم ، والفرسَ العتيق إذا كان أُنثى : شَوْهاء ، وكذلك سَمُّوا بنتَ ضَبَّة : العوراء وكانت عند تميم .

وكذلك العوراء بنت أبى جهل ، وكذلك الجَرْباء بنتَ عِقيل[٣] ، وكذلك بنى العوجاء فى همْدان ، وعلى ذلك سَمّوا بَنَاتهم بكَلْفَاء وسَوْداء ودَلْمَاء وخَشْنَاء وخَنْسَاء .

* * *

وزعم أبو عثمان البقْطَرى[٤] : أن أُمَّ سُراقةَ بنِ مالك بن جُشَم المُدْلجىّ كانت بَرْصَاء ، وأنشد قولَ أُميةَ بن الأَسْكَر[٥] :

قد جَرَّت البَرْشاءُ أُمُّ سُراقـــةٍ رَمَتْهُ بهـا البغضاء بين الحواجب
وقد نيل شِطْرَ الليل حتى تغضَّنَت مشافـرهُ كالقُنْفُـذِ المُتَحارِبِ

---

(١) ومن تمام القصة أن البرشاء أسرعت إلى ضرتها فقطعت يدها فسميت الجذماء ، انظر القاموس المحيط ، برش وجذم ، وجمهرة الأنساب ٣١٤ .

(٢) السباريت : جمع سبروت بضم السين وهى الأرض القفر لا نبات فيها .

(٣) ابن علفة المرى ، وكان مشهوراً بالغيرة الشديدة على بناته شديد الإباء فى تزويجهن وقد كاد يقتل ابنته الجرباء هذه بسبب الغيرة فى خبر طويل ، انظره فى العقد الفريد ٥/٩٩ ، ومن الجدير بالذكر أن الجرباء كانت زوجة لخليفة يزيد بن عبد الملك ، انظر جمهرة الأنساب ٢٥٣ .

(٤) ذكر الجاحظ فى كتاب البغال ٢٢١ أن اسمه فهدان .

(٥) أمية بن حرثان بن الأسكر من بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، كان شاعراً فارساً مخضرما ، أدرك الجاهلية والإسلام وكان من سادات قومه وفرسانهم ، وله أيام مأثورة مذكورة ، له قصة مشهورة مع عمر رضى الله عنه حين رد ابنه كلاباً إليه ، وكان قد أسلم وذهب فى بعث إلى العراق ، انظر المعمرين ٨٥ ، الإصابة الترجمة ٢٥١ ، الأغانى ١٠/١٣٨ .

إذا غمَزتْــه الكفُّ قال لآلِهِ واحسُنَهُ لو أنه غيرُ شائبَ

فهو لَعَمْرى شِعْرُ أُميَّة بنِ الأَسْكر ، وليس فى ذكر البُرَش دليلٌ على البَرَص ، والذى هَجَا به أُميةُ بنُ الأَسْكر نَفْسَه[1] فى هذا الشعر السَّخِيف السَّفيه ، أسمَج وأشنعُ مما هجا به سُراقة ، وهذا المَثَلُ يُرغَبُ بمثله عنه .

* * *

وسمعت شيخاً من مُزَينة يقول : لولا الذى كان من زُهير من الفُحْش فى هجاء بنى أسد[2] لما كان فى الأَرض أتمُّ من مُروءةِ شعره ، ولا أقْصَدُ ولا أقَلُّ تَزَيُّدًا من زهير ، لأَنه وصفَ الملوكَ والسُّوقَةَ والفرسانَ والسَّادَةَ بالذى يكون فيهم .

* * *

ويقولُ أَهلُ العلم : ثلاثةُ رجالٍ سَادوا فى الجاهلية والإسلام ، أَحدهُم سراقة بن مالك بن جُشَم المُدْلجى[3] ، والآخر الجَارُودُ بن

---

(١) أى من ذكر ما حدث معه فى ليلته تلك .

(٢) كان السبب فى ذلك الهجاء أن الحارث بن ورقاء الصيداوى من بنى أسد أغار على بنى عبد الله بن غطفان وأخذ إبل زهير وراعيه يساراً ، فقال زهير قصيدته التى يلومهم فيها على ذلك ويطالب برد إبله وراعيها والتى أولها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

على أنه حين وصلت هذه القصيدة إلى مسامع ابن ورقاء لم تحدث أثرا فى نفسه فلم يرد الإبل ، فقال زهير قصيدته الثانية يهجوهم بها وأولها :

تعلم أن شر الناس حى ينادى فى شعارهم يسار

وأفحش فيها ، فلما بلغت بنى أسد الأبيات قالوا للحارث بن ورقاء : اقتل يساراً ، فأبى عليهم وكساه ورده ، فمدحه زهير وذمهم فى قصيدة ثالثة ، انظر ديوانه ٤١ — ٥١ .

(٣) يكنى أبا سفيان ، كانت عشيرته بنو مدلج قائفى الأثر عند العرب ، وكان من أحسنهم فى هذا ، فأرسله أبو سفيان بن حرب ليقتاف أثر الرسول صلوات الله عليه حين خرج إلى المدينة مع أبى بكر ، وقصة التقائه بهما معروفة مشهورة ، أسلم سراقة بعد غزوة الطائف سنة ٨ ، وتوفى سنة ٢٤ هـ انظر الإصابة الترجمة ٣١٠٩ .

المعلَّى العَبْدِىُّ[١] ، والثالث جَريرُ بن عبد الله البَجَلِىُّ[٢] .

* * *

وقالوا فى المُوَلَّع[٣] ، قال أبو عبيدة : كان ثُمَامةُ بن عبد الله ابن أَنَس[٤] أَسْلَعَ[٥] بن أَسْلَعَ بن أَسْلع ، ولذلك قال خليفةُ الأَقْطعُ أبو خلفِ بن خليفة[٦] الشَّاعر :

وكُنَّا قبل مُسْتَقْضَى بِـلَالٍ[٧] من السِّنْخِ[٨] المُوَلَّع فى عَنَاءِ
تَقَيَّـلَ[٩] سِـنْخَهُ وأبـا أبيـــه كما قُـدَّ الحِذَاءُ على الحِـذَاءِ

---

(١) أبو المنذر ، ويقال أبو غياث ، يقال ان اسمه بشر بن حنش ولقب بالجارود لأنه غزا بكر بن وائل فاستأصلهم ، كان سيد عبد القيس وقدم سنة عشر على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وسر به الرسول وقربه وأدناه ، قتل بأرض فارس بعقبة الطين فسميت عقبة الجارود وذلك سنة ٢١ فى خلافة عمر ، وقيل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن وقيل بقى إلى خلافة عثمان ، الإصابة الترجمة ١٠٣٨ .

(٢) يكنى أبا عمرو ، قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سنة الوفود سنة عشر فبايعه وأسلم ، وحضر فتوح فارس فأبلى فيها أحسن البلاء ، وكان جرير حسن الوجه طوالا ، قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « على وجهه مسحة ملك » ، اعتزل عليا ومعاوية وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفى بالشراة سنة ٥٤ هـ بالكوفة ، انظر المعارف ٢٩٢ .

(٣) التوليع : استطالة البلق .

(٤) ابن مالك الأنصارى البصرى ، قاضيها ، روى عن جده أنس والبراء بن عازب وأبى هريرة ولم يدركه ، قال أحمد والنسائى : ثقة ، تولى القضاء سنة ١٠٦ وعزله خالد بن عبد الله القسرى سنة ١١٠ ، انظر تهذيب التهذيب ٢٨/٢-٢٩ .

(٥) السلع : البرص .

(٦) خلف بن خليفة الأقطع ، وصفه الجاحظ فى البيان والتبيين ٥٠/١ بأنه من الشعراء المطبوعين ، وهو كان يسمى بالأقطع لأن يده قطعت فى سرقة فركب يداً ذات أصابع من جلود ، انظر الشعر والشعراء . أما أبوه فقد أورد له الجاحظ أيضا بعض شعره فى البيان ٢٥٨/٣ .

(٧) بلال ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ، ولاه خالد بن عبد الله القسرى قضاء البصرة حين تولى العراق لهشام بن عبد الملك ، وعزله عنها يوسف بن عمر سنة ١٢٠ هـ ، ثم مات فى حبسه سنة ١٢٦ هـ .

(٨) السنخ : الأصل .

(٩) تقيل سنخه : أشبه أصله ، يقال : تقيل أباه أى أشبهه .

ويقال : إنَّ وَلَدَ أَنَسِ بنِ مالكٍ لا ينفكُونَ فى كلِّ زمانٍ أن يكون فيهم رُؤساءُ ، إمّا فى الفقه وإمّا فى الزُّهْد وإمّا فى الخطابة ، ولم يكن بالبصرة أَنْظَرُ من أَبى ثُمامةَ[١] ومن مُوسى بنِ حَمْزةَ[٢] . ووُلِد لأَنسٍ عُشرون ومائةٌ من صُلْبِهِ ، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرةِ الوَلَدِ والسَّعَةِ فى الرِّزْق ، ويُستدل على مِصْداقِ ذلك بكثرة قطائعه[٣] ، قالوا : ولم يكنْ يَعْتريهم عُطَاسٌ مُذْ صار فيهم قدح رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أصحاب المسند : أنه ليس فى جميع المُسْند أكثرُ منها فوائد من مُسْنداته .

وإمامةُ مسجد الجامع بالبصرة مقصور[ة] على الأَنصار ، لما فيهم من الصَّلَاح والحال الجميلة .

وليس لأَحدٍ من أَهل البصرة من الموالى مثلُ مَالَهم ، فمن مواليهم الحَسَنُ[٤] وابنُ سِيرين[٥] ، ولم يتلطَّخوا بشىءٍ من الفِتَنِ فى طول ما حاربتْ الأَزدُ بالبصرة لتميم ، هذا وهم فرسان الأَزد .

* * *

---

(١) كذا فى الأصل ، والصحيح ثمامة لا (أبى ثمامة) فالمقصود هو ثمامة بن عبد الله بن أنس المذكور آنفاً .

(٢) موسى بن حمزة بن أنس ، انظر فى ترجمته تهذيب التهذيب ٢٧٩/١٠ .

(٣) انظر الإصابة الترجمة ٢٧٥ .

(٤) المقصود به الحسن البصرى ، العالم الزاهد الورع ، كان مولى الأنصار ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت ربما غابت فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجىء أمه فيدر ثديها فيشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك ، وصفه يونس بن عبيد بقوله : كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميم ، وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له ، توفى الحسن سنة ١١٠ هـ . المعارف ٤٤٠ .

(٥) هو محمد بن سيرين ، أبو بكر الأنصارى البصرى ، كان أبوه مولى لأنس بن مالك رضى الله عنه ، وكان معروفا بالصدق والورع وتعبير الرؤيا ، توفى سنة ١١٠ هـ ، انظر المعارف ٤٤٢ .

وزعموا أن بنى نُمير[١] بُرَصَاءُ، واستشهدوا قولَ كعب بن سَعْد الغَنَوِىّ[٢] :

[ألا][٣] ما في الحَرِيشِ ولا عُقَيْلٍ ... ولا أولادِ جَعْدَةَ من كريمِ[٤]
ولا البُرْصِ الفِقاحِ بنى نُميرٍ ... ولا العَجْلانِ رائدةِ الظَّلِيمِ[٥]
أولئك معشرٌ كبناتِ نَعْشٍ ... رَوَاكِدُ لا تَسِيرُ مع النُّجُومِ

قال : وهذا هو معنى قول جرير[٦] :

ولو وُضِعَتْ فِقَاحُ[٧] بنى نُميرٍ ... على خَبَثِ الحديد إذاً لَذَابَا

• • •

قالوا : ومن البُرْصان ، الأَبرصُ الكلبى ، قال المختارُ بن أبى عُبيد[٨] **حين** أيقن بالقتل :

إن يَقْتُلُونِى يَجِدُونِى جَزِرَا[٩] ... مُحمدًا قَتَلْتُهُ وعُمَـــرَا
والأَبْرَصَ الكلبىَّ لما أَدْبَرَا

---

(١) هم بنو نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن خصفة بن قيس عيلان ، جمرة من جمرات العرب ، من شعرائهم أبو حية النميرى والراعى النميرى ، انظر المعارف ٨٥ – ٨٧ .

(٢) انظر ترجمته فى معجم الشعراء ٣٤١ ، وأبياته التالية فى حماسة أبى تمام ١٩٧ بدون نسبة.

(٣) زيادة عن الأصل ، اذ ان روايته لا يستقيم معها الوزن ، وفى الحماسة : ما إن فى الحريش .

(٤) الحريش وعقيل وجعدة أبناء كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وهم أبناء عمومة بنى نمير . انظر المعارف ٩٠ ، ٨٩ ، ٨١ .

(٥) بنو العجلان هم بنو عبد الله بن كعب بن ربيعة ، رهط ابن مقبل الشاعر ، المعارف ٩٠ .

(٦) ديوانه ٧٢ .

(٧) الفقحة : حلقة الدبر ، وقيل : هى الدبر بأجمعها .

(٨) كان المختار بن أبى عبيد الثقفى قد خرج زمن مصعب بن الزبير فاستولى على الكوفة وتتبع قتلة الحسين رضى الله عنه فقتلهم ، وكان يزعم أنه يلهم ضربا من الوحى ، وكان خاتمة أمره أن قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ ، انظر كامل المبرد ١٦٤/٢ ، المعارف ٤٠١ .

(٩) الجزر : القاطع والذابح ، وفى الأصل : حرداً ، تحريف .

قال : ومن البُرصان ، شَمِرُ بنُ ذِى الجَوْشَنِ الضَّبَابِىُّ ، قال الحسينُ بن علىّ بن أبى طالب رحمةُ الله عليه — قبل أن يقتلَهُ بليلة — : إنّى رأيتُ فى المنام كأنّ كلبًا أبْقعَ يَلَغُ فى دمائنا ، فَعَبَرتُهُ هذا الأبرص الضِّبابِّى ، يعنى شَمِر بن ذى الجَوْشن[1] ، كان الرئيسَ فى قتل الحُسَين ابن على ، والمَلِكُ يزيدُ بنُ مُعاوية ، وكان أميرُ العراق الذى جَهَّز الجيش وعقد اللواءَ عُبَيْدَ الله بن زِياد ، وكان صاحبُ الجيش وأميرُ الجماعة عُمَر بن سعد ، وكان قائدهُ الأكبر شَمِرَ بن ذى الجَوْشَن ، وكان الذى تولّى قتله يَزيدُ بن خَوْلى ، والذى حفظ ظهر يزيد حتى نزل إليه وحزَّ رأسَه سِنان بن أنس .

* * *

وسألت مشيخة بنى صُبَيْرٍ[2] عن بَرَصِ البُهْلُول بن سُليمان بن عُبَيْد بن عَلَّاق بن شماس الصُّبَيْرِىُّ ، وكان البُهْلُول فَتَى بنى يَرْبُوع وشيخها ، فقالوا : إنَّ أُمَّ عيسى — يَعْنُون أمَّ ولدِ سليمانَ بنِ عُبيد — كانت بَرْصَاء لم تلدْ قطُّ إلَّا أبرصَ أو بَرْصاءَ ، إلَّا أنه فى بعضهم أخفى وفى بعضهم أظهر .

* * *

ومن البرصان ، بنُو عبد الأعلى الشيبانىّ الشعراءُ الخطباءُ : عبد الله[3]

---

(١) انظر النص فى الحيوان ١/٢٧١ ، وانظر المعارف ٥٨٣ ، ٤٠١ .

(٢) فى الأصل : ضبير وصحتها بالصاد المهملة ، انظر جمهرة الأنساب ٢٢٥ .

(٣) عبد الله بن عبد الأعلى بن أبى عمرة (بفتح العين وسكون الميم) مولى بنى شيبان ، وأبو عمرة هذا من الغلمان الذين سباهم خالد بن الوليد من عين التمر ، كان يتهم بالزندقة ، أرسله عمر بن عبد العزيز فى سفارة إلى ليون ملك الروم فظهرت منه أشياء لم تحمد ، شعره كثير وعامته فى الزهد ، انظر سمط اللآلى ٩٦٣ ، لسان الميزان ٣/٣٠٥ .

وعبد الصمد[1] وأخوهما ، وكان هشامُ بن عبد الملك بعث بهم إلى يوسف بن عمر ، وكانوا أصحاب الوليد بن يزيد وخاصَّتَه والوليد يومئذٍ القائمُ بعد هشام ، فدفعهم يوسفُ بن عمر إلى محمد بن بَانَة ، فطيَّن عليهم إلَّا بمقدار ما يُدخِلُ عليهم منه الطعامَ فأطعمهم ولم يَسْقِهم ، فلما أجهدهم العطشُ صاحوا : يا سَبِيَّ رسول الله ! إنَّا مُسلمون ، ألا ترى أنَّ اسمَ أبينا عبدُ الأعلى وأسماؤُنا عبدُ الله وعبدُ الصمد ، فلم يُمْسُوا حتى اسودُّوا ثم اسودُّوا ثم بَرِصُوا ثم تسلَّخُوا . وإنمّا قالوا ذلك لأنَّ هشامًا بعث بهم إلى يوسفَ على أنَّهم زنادقة ، وأراد بذلك التَّشْنيع على الوليد . وهجا بعضَ أولادهم شاعرٌ فقال :

وجَدُّك أبيضُ القرنين داجٍ ... أسيرُ الذلِّ والعطشِ الطويل

وعبد الله بن عبد الأعلى هو الذى يقول :

مَنْ هُنَا لِي من صَدِيقٍ فَلْيَعُدْ ... لِيَعُدْنِي إنَّنِي اليَوْمَ كَمِدْ

ن هُمومٍ تركتْنِي قَلقاً ... قَلَقَ المِحْوَرِ بالقَتِّ المَسَدْ[2]

ليت شعرى ولليتٍ نَبْوةٌ ... أين صارالروح مُذْ بان الجَسَدْ

بينما المرءُ شهابٌ ثاقبٌ ... ضرب الدهرُ سَنَاهُ فخَمَدْ

---

(١) كان هو الآخر يتّهم بالزندقة والفسق ، وكان معلم ولد عتبة بن أبى سفيان ولعتبة وصية شهيرة لعبد الصمد فى كيفية تأديب ولده ، وقد أدب أيضا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويقال إنه هو الذى أفسده ، انظر البيان ٢٥٢/١ ، لسان الميزان ٢١/٤ تاريخ الطبرى ٢٨٨/٨ .

(٢) المحور : الخديدة التى فى وسط البكرة وتدور عليها ، وهى تجمع بين البكرة والخطاف الذى يحملها ، والمسد هو نفسه المحور ، والقت : الجمع قليلا قليلا ، وهو يقصد بقلق المحور حركته الدائمة .

أو لبيبٍ اسْتَوتْ حُنْكَتُهُ[١] مُوفِيَ المِرَّةِ مَأْمُونَ العُقَدْ[٢]
غَالَهُ الدَّهْرُ وغَطَّى حَزْمَهُ وانْتَضَاهُ[٣] من عَدِيدٍ وَوَلَدْ

وهو الذى يقول[٤] :

يا وَيْحَ هَذِى الأَرْض ما تَصْنَعُ لكلِّ حَيٍّ فَوْقَهَا مَصْرَعُ
تَزْرَعُهُمْ حتى إذا مَا أَنَوْا[٥] عَادَتْ لهم تحصُدُ ما تَزْرَعُ

ويزعم كثير من الرواة أن القصيدة التى تُضَاف إلى لقيط الإيادى[٦] إنما هى لعبد الله .

* * *

ومن البُرصان[٧] ، سعدُ المَطَر ، وهو الذى يقول :

ليتنى كنت مُغْرِبَا مُنْتِنَ الرِّيحِ أجْرَبَا
أو غُرَابًا مُطَرَّدًا يَرْقُبُ الذِّيبَ أحْنَبَا[٨]

---

(١) غير واضحة فى الأصل ، ويصعب قراءتها بصورة مرضية ، ولعلها كما أثبت .
(٢) المرة : العقل وشدته ، وإحكام الفتل ، والعقد جمع عقدة وهى إحكام الأمر وإبرامه . وفى الأصل : مستوفى بدل موفى ولا يستقيم معها الوزن ، وموفى المرة : أى تام العقل .
(٣) انتضاه : أخرجه ونزعه .
(٤) البيتان فى سمط اللآلى ٩٣٢ .
(٥) أنى الشئ : نضج .
(٦) كان لقيط بن يعمر الإيادى كاتباً فى ديوان كسرى ، وكان كسرى غاضباً على قومه فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً لمحاربتهم ، إلا أن لقيطا أرسل إليهم قصيدة يحذرهم فيها ويحضهم على الاستعداد للمحاربة ، وقد وقع رسوله فى يدى كسرى فقطع لسانه وغزا إياداً ، أما تلك القصيدة فهى من عيون الشعر ، وأولها ،

يادار عمرة من محتلها الجرعا هاجت لى الهم والأحزان والوجعا

ولعل الجاحظ يعنى هذه القصيدة فليس للقيط غيرها من القصائد .
(٧) فى الأصل : ومن الفرسان ، وهو تحريف واضح .
(٨) الأحنب : المنحنى المتقوس الظهر .

ذهب إلى قول رؤبة :

تشقى بىَ الغِيرَانِ حتى أَحْسَبَا سِيدًا مغيرًا ولياحًا مُغْرِبَا[1]

يقول : ليتنى كنت شيئاً يهربُ الناس منه ، أو غرابًا يرقُب ذئبًا على جيفة ، فإذا تنحى الذئب أكل الغراب ، وإنما قيل له سعد المطر لأنه كان يقول فى شعره[2] :

دَعِ المواعيدَ لا تَعْرِضْ لوِجْهَتِهَا إنَّ المواعيدَ مقرون بها المَطَرُ

إنَّ المواعيدَ والأَعيادَ قد مُنِيَا مِنه بـأَنكرِ[3] ما يُمْنَى به بَشَرُ

أما الثيابُ فلا يَغْرُرْك إنْ غُسِلَتْ صَحْوٌ قَدِيمٌ[4] ولا شَمْسٌ ولا قَمَرُ

وفى الشُّخُوصِ لـه نَوْءٌ[5] وبَارِقَةٌ فإن بُلِيتَ[6] فَذَاك الفَالِجُ الذَّكَرُ

* * *

---

(١) ورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

سقانى العيران حتى أحسبا سيد مغـــراء وليثا مغربا

وقد أثبتت رواية الحيوان لقربها من معنى البيتين السابقين ، وقال الشارح : الغيران جمع غور وهو المطمئن من الأرض ، يقول : تشقى بى الأغوار من شدة السير ، والسيد بالكسر الذئب ، والليلح بالفتح والكسر : الثور الأبيض ، والمغرب : الأبيض ، انظر الحيوان ٩٢/٧ .

(٢) الأبيات التالية فى ثمار القلوب ١٠٤ ، وفيه : قال الجاحظ : إنما قيل سعد المطر لأنه كان يرى ملقى فى المطر ، وهى رواية تخالف ماذكر هنا .

(٣) فى ثمار القلوب : بأنكد .

(٤) فى ثمار القلوب : يدوم ، ويفهم مما ساقه الثعالبى بعد هذه الأبيات أنه كان من عادتهم غسل ثيابهم طلبا لنزول المطر .

(٥) فى الأصل نور بدل نوء .

(٦) فى الأصل هنا كلمة لا تقرأ وسوف يرد البيت فيما يلى بالكلمة المثبتة وفى ثمار القلوب : يبيت ، والفالج الذكر ، الذى يهجم على الجوف .

ومن البرصانِ والعميانِ الشعراء ، علىُّ بن جبلة[١] ، وكان يكنَّى أبا الحسن ، وكان مع عمائه وشُنْعة بَرَصِه يتعشَّقُ جاريةً ، ويتعشَّقها شاعرةً ظريفةً أديبة ، وكان أنشد حُمَيْدَ بنَ عبد الحميد[٢] شعراً فوهب له مائتى دينار ، فانصرف من دار حُمَيْد إلى منزل المعشوقة فصبّ الدنانير فى حِجْرها ثم مضى إلى منزله وليس فيه درهمٌ ولا شىء قيمته درهم ، وكان أحسنَ خلق الله إنشاداً ، ما رأيتُ مثلَه بدويًّا ولا حضريًّا ، وهو القائل[٣] :

/ودمٍ أهْرَقْتُ من رَشَـــأٍ لم يُرِدْ عَقْلًا على هَـدَرِهْ[٤]
إنمـا الدنيـــــا أبو دُلَفٍ بَيْنَ مَغْـــزَاهُ ومُحْتَضَـرِهْ[٥]
فـــإذا وَلَّى أبو دُلَـــفٍ ولَّـت الدُّنيـــا على أَثَـرِهْ

---

(١) هو على بن جبلة المعروف بالعكوك أى (الغليظ السمين) شاعر عراق مجيد من أحسن الناس إنشادا ، قيل قتله المأمون سنة ٢١٣ هـ ، ترجمته فى تاريخ بغداد ٣٥٩/١١ ، مختار الأغانى ٣٢٩/٥ .

(٢) حميد بن عبد الحميد الطوسى ، من كبار قواد المأمون ، كان جباراً فية قوة وبطش ، وكان المأمون ينتدبه للمهمات ، توفى سنة ٢١٠ هـ ، انظر النجوم الزاهرة ١٩٠/٢ .

(٣) يقولها فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى بن معقل بن إدريس العجلى ، سيد قومه ، قال ابن النديم : أخذ عنه الأدباء الفضلاء والشعراء المجودون ، وله صنعة فى الغناء ، وأمره مشهور وله من الكتب كتاب البزاة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك توفى سنة ٢٢٦ هـ ، الفهرست ١٦٩ ، تاريخ بغداد ٤١٦/١٢ .

(٤) العقل : الدية ، وكان من خبر هذا البيت أن الجارية التى كان يهواها على بن جبلة كانت هى أيضا تحبه رغم ما فيه من العمى والوضح ، فزارته يوماً وأمكنته من نفسها فافتضها ، وإلى هذا يشير فى هذا البيت ، انظر مختار الأغانى ٣٣٨/٥ ، العقد الفريد ٣٠٧/١ .

(٥) مغزاه أى حين يغزو ، ويروى بين مبداه ومحتضره ، فبداه أى فى البادية ومحتضره أى فى الحاضرة .

وهو الذى قال فى حميد:

دِجلةَ تَسْــقَى وأبو غَـانِمٍ يَطْعِمُ من يَسْقِى من النَّـاسِ

* * *

ومن البرصان ثم من بنى قُشَيْر بن كعب عبدُ الأبرص[1] بن هبيرة بن زفر بن عبد الله بن الأعور بن قشير .

* * *

ومن البرصان عمرو بن بانة ، وهو عمرو بن محمد بن سليمان ابن راشد ، وكان ذا قَدْرٍ ، وولى ولاياتٍ جسيمة ، ويقولون : مَوْلى أمير المؤمنين ، وثقيفٌ تَدَّعِيه[2] . وأُمُّه بانةُ بنتُ رَوْحٍ كَاتِبِ سَلَمَة ، وكنيته أبو الفضل ، وهو شريفُ الأبوين ، وإنما أُضيف إلى أُمّه كما قيل محمدُ بن حفص بن عائشة[3] ، وكما قيل حفص بن بانة ، وعلى ذلك المعنى أضافوا بنى سلول إلى أُمهاتهم ، وباهلة إلى أمهم ، وكذلك مُزَيْنَة وكذلك يصنعون إذا كانت للأُمّ نباهة .

وعمروٌ أروى الناس للغِنَاءِ وأعلمهم به وأجودهم له صَنْعَةً ، وله سخاءٌ على الطعام ومروءة فى نفسه ، وهَجَادُ بعضُ البغداديين[4] فقال :

---

(١) الصحيح أنه عبدالله الأبرص بن زفر إلخ ، كان حفيده زياد بن عبدالرحمن يتولى خراسان لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، انظر جمهرة الأنساب ٢٩٠ .

(٢) ذكر ابن النديم فى الفهرست ٢٠٧ أن أباه كان مولى يوسف بن عمر الثقفى ، وأمه بانة ابنة روح كاتب سلمة الوصيف ، ثم قال : له من الكتب كتاب مجرد الأغانى ، انظر أيضاً فى ترجمة عمرو بن بانة نهاية الأرب ٥/٢١

(٣) هو محمد بن حفص بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر التيمى ، كان يسمى ابن عائشة نسبة إلى عائشة بنت طلحة لأنه من ذريتها ، ذكر الجاحظ فى البيان ١/١٢ أنه كان عظيم الشأن كثير العلم .

(٤) هو عيسى بن زينب المراكبى مولى بنى أمية ، انظر معجم الشعراء ٢٦٠ .

أقولُ وقد مرّ عَمْروٌ بنـــا فسَـــلِّم تَسْليمةً جافيْـــه
لئن تَـاهَ عمروٌ بحُسْنِ الغِنَـا لقـد فَضَّلَ اللهُ بالعافيْـــه

/ بئس ما قال لأنه ذهب مذهب التعْيير ، فعيّره بشيء لايدرى لعلّه ينزل به .

* * *

ومن البرصان أبو عبد العزيز الأسلع ، وكان صاحب أخبار ، وقد روى لنا الهيثم عنه .

* * *

أبو الحسن ، عن عَوَانة ، قال : قدم على سليمان بن عبد الملك وفدٌ من المدينة وحضر طعامه ، فدعاهم إليه فدنوا ، فقال رجلٌ منهم — وجاءت ثَرْدَةٌ[1] — : ما هذا الرمكا[2] يا أمير المؤمنين ؟ فقال له سليمان : ما هذا الأُنس قبل الخُلطة ! ثم حَسَر الرجلُ عن ذراعِهِ وعن يَده فإذا فى ذراعه وضح ، فقال : وهذا أيضًا ؟ قال : فلما أمر لهم بجوائزهم قال : زِيدُوا الرجل مائة دينار لما كلَّمناهُ به .

* * *

قال أبو الحسن : وكان أيمنُ بن خُرَيْم أبرصَ ، وكان خاصًّا بِبِشْر بن مروان ثم غضب عليه ، ومضى إلى عبد العزيز وهو على مصر ،

---

(١) الثردة : الخبز يفت ثم يبل بمرق .

(٢) هكذا فى الأصل وصحتها ماهذه الرمكة ولعل الرجل تكلم بلهجة عامية ، والرمكة بضم الراء لون الرماد .

فوهب له قيمةَ ألفِ ألفِ درهم ، ثم جرى بينه بعد ذلك وبين بشر كلام ، فقال أيمنُ : لا والله ، ولكنَّك مَلُولٌ مُسْتَطرف ، فقال له بشر : أنا ملول مستطرف ؟ وأنا أُواكلك منذ كذا وكذا .

* * *

ومن البرصان ، بِشرُ بن المُعْتِمر[٢] وهو مُعَلِّم أبي موسى المِدْرار[٣] وبشر القلانسى وأبى عمران الرقاشى ورَوْح العبدى وأبى عبيد الله الأفوه وهاشم بن ناصح ، وكان متكلِّمًا رصينًا ، شاعراً مفلقًا ، وراوية ناسبًا ، ولم يقْوَ أحدٌ من المخمَّسِ والمُزدَوج على مثل ما قَوِىَ عليه بِشْرٌ ، حتى كان فى ذلك أكثر من أبَان بن عبد الحميد اللَّاحقىّ[٤] ، لأنَّ أبانًا إنما نقل كتابَ كليلةَ ودِمْنة وبعضَ كتاب المنطق مُخَمَّسًا ومُزْدَوَجًا / فقط ، وبشرٌ أصحُّ فى أصناف الكلام ودقائق المعانى بالمخمَّس فلم يَسْتَكْرِه قافيةً واحدة ، وهجاهُ مُعَمَّرُ بن عَبَّادٍ مولى بنى سُلَيم ورئيسُ

---

(١) سوف يرد سبب هذا القول فيما يلى من الكتاب .

(٢) بشر بن المعتمر كوفى ويقال بغدادى ، يكنى أبا سهل من كبار المعتزلة وإليه تنسب الطائفة البشرية منهم ، قال فى لسان الميزان : قال الجاحظ : كان يقع فى حق أبى الهذيل العلاف ، وخالف المعتزلة فى مسألة القدر ، وكان نخاساً يبيع الرقيق ، وكان يقول : إن الله لم يخلق شيئاً من الأعراض كلها وإنما هى فعل الناس ، ومن مناكيره : زعم أن الإنسان يقدر أن يجعل لغيره لونا وطعماً وإدراكاً وسمعاً ونظراً بانتولد إذ عرف انتظامها ، انظر لسان الميزان ٣٣/٢ ، أمالى المرتضى ١٣١/١ .

(٣) فى الأصل المراد وهى خطأ وصحتها كما أثبت ، وهو عيسى بن صبيح الملقب مدرار من كبار المعتزلة أخذ عن بشر بن المعتمر وقال المسعودى : كان من كبار المعتزلة وأهل الديانة فيهم ، انظر لسان الميزان ٣٩٨/٤ .

(٤) شاعر مكثر من أهل البصرة وأصله من الموالى ، انتقل إلى بغداد واتصل بالبرامكة فأكثر من مدحهم ، وخص بالفضل بن يحيى ، ذكر ابن النديم أنه نظم كتباً أخرى غير ماذكره الجاحظ هنا ، وكلها فى سير ملوك الفرس كسيرة أردشير وسيرة أنو شروان وغيرهما ، قال : وله أخبار وهجاه أبو نواس وغيره ، انظر الفهرست ٢٣٢،٧٢ والنجوم الزاهرة ١٦٧/٢ .

أصحاب المعانى ، وكان يُكنَّى بأبى عمرو وأبى المعتمر[١] ، بشعرٍ فَضَحَ فيه المتكلِّمين ، وهو أوّلُ شعرٍ قال وآخره ، وذلك أنه قال :

وأبرصَ فَيَّاضٍ لوجهه رِيَـاضُ يرى السَّعَايةَ فينا وقلبه مِمْراضُ

* * *

ومن البرصان ، أبو حَمَّاد المروزىُّ صاحبُ لواءِ أبى مسلم صاحب الدعوة .

* * *

ومن البرصان ، مِسْمعُ بنُ مالك بن مِسْمع[٢] ، ولى شُرطة سليمان ابن علىّ ، قال : وكان فاحش البرص .

* * *

ومن البرصان ، الصُّفْرى صاحب السبعين ، قتله ابن راعول أيام المُبيِّضة ، ولاأظنه كان متسلِّحًا ، وقد رأيتُه وكان ضخمًا أقْشَرَ أرْقَط مُغْرِبًا ، وكان ذلك لونه ، ولا يقال لمن كان لونُ جسده كلِّه لون البرص أبرصَ ، إذا كان ذلك اللون ليس بحادث .

* * *

قالوا : ومن البرصان ثم من الرواة والنَسَّابين ، وأصحابِ الأخبار الحكماء ، ومن الصحابة عبدُ الله بن عَيَّاش الهَمْدَانىُّ المنْتُوف[٣] ، وكنيته

---

(١) كناه الجاحظ فى البيان ٩١/١ أبا الأشعث ، وهو صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة توفى سنة ٢١٥ هـ ، انظر الفهرست ١٤٧ ، ولسان الميزان ٧١/٦ .

(٢) قال فى الجمهرة ٣٢٠ : ومن بنى ربيعة وهو جحدر بن ضبيعة : مالك بن مسمع بن شهاب ، لبنيه وبنى اخوته بالبصرة عدد وثروة .. فولد مالك بن مسمع : مسمع ويكنى أبا سيار وانظر المعارف ٤١٩ ، أما سليمان بن على فهو عم أبى العباس السفاح وقد ولى البصرة وعمان والبحرين للمنصور ، وتوفى سنة ١٤٢ ، انظر المعارف ٣٧٥ .

(٣) لا أظن أنه كان من الصحابة ؛ فهو — كما سيأتى فى ترجمته — كان ينادم أباجعفر المنصور ، والمنصور تولى الخلافة سنة ١٣٥ هـ ، ومن المستبعد أن يكون قد أدرك النبوة ثم عاش إلى عهد المنصور ، هذا ولم يذكره ابن حجر فى الإصابة ، فلعل قوله : من الصحابة ، عن الصحابة .

أبو الجرَّاح ، وهو الذى لا نعلم أحدًا أكثر عنه إلَّا الهيثم بن عدىٍّ .

قال أبو عبيدة والهيثم : عبث شَبَّةُ بن عُقَال[1] بعبد الله بن عَيَّاش[2] على باب الخليفة ، وكان على كفِّ عبد الله وَضَح ، فقال : ما هذا على ظهر كفِّك يا ابن عَيَّاش ؟ قال : سَلْحُ النعامة ، قال : وكان شبَّةُ يلقَّب بسَلْحِ النَّعامة ، وأنشدوا :

فضح المنابر يوم يخطبُ قائماً سَلْحُ النعامةِ شبَّةُ بنُ عقَالِ[3]

وليس هكذا روى الناس الشعر ، بل إنما قال الشاعر :

فضح المنابرَ يوم يخطبُ قائمًا سَلْحُ النعامةِ[4] شَبَّةُ بنُ عقال

لأنَّه كان مفرط الطول ، وإنما ذلك على معنى قول الشاعر :

لَعَمْرِى لئن طال الفُضَيْلُ بنُ دَيْسَمٍ مع الظلِّ ماإنْ رأْيهُ بطويلِ[5]

وقال جريرٌ :

إذ ظلَّ يَحْسَبُ كُلَّ شخصٍ فارساً ويَرَى نَعَامَةَ ظِلِّهُ فَيحُولُ[6]

---

(١) هو شبة بن عقال المجاشعى من مجاشع رهط الفرزدق ، وكان زوج أخته جمثن ، انظر النقائض ٨٥٢ .

(٢) روى عن الشعبى وغيره ، وروى عنه الهيثم بن عدى وكان راوية للأخبار والآداب ينادم أبى جعفر المنصور ويضحكه ، ترجمته فى لسان الميزان ٣/٣٢٢ .

(٣) البيت لجرير وهو فى ديوانه ٣٧٨ ، وانظر النقائض ١/٣٢٣ ، والرواية هناك : فضح الكتيبة يوم يضرط قائما ... قيل : وكان شبة بن عقال يخطب يوماً وقد استنفر (اتسع) فى خطبته حتى ضرط ، فضرب بيده على استه وقال : ياهذه كفيناك السكوت فاكفينا الكلام ، فقال جرير هذا البيت يهجوه ، انظره أيضا فى الحيوان ٦/١٧٩ ثمار القلوب ٤٤٣ .

(٤) الرواية فى الحيوان والثمار : ظل النعامة بدل سلح النعامة . وهذه الرواية تناسب ما يريد الجاحظ توضيحه ها هنا من معنى .

(٥) ورد البيت فى الاشتقاق ٤٢٢ منسوباً للفرزدق ، والرواية فيه : ما آريه بدل ما إن رأيه ، ولم أعثر عليه فى ديوانه .

(٦) البيت فى الديوان ٤٧٥ ، وفى الأصل : ويرى النعامة ظله فتحول ، وهو تحريف ولا يناسب المعنى .

وأنشد البَطِين[١] :

وطولِ حديثٍ كطُولِ الشُّرُوقِ تَقَضَّى الدُّهُـورُ وما يَنْقَضِي

لأنهم يزعمون أنَّ ظلّ الشخص مع طلوع الشمس ليس له غاية ينتهى النظر إليه .

* * *

وقال أبو زيد النحوىّ واسمه سعيد بن أوس من ولد القارئ الأنصارى[٢] : يقال : سام أبرص وسَامَّان[٣] أبرص وسَوَامٌّ أبرص[٤] : وبإسقاط سامٌّ من سام أبرص ، ويقولون : أبرصُ وأبارص[٥] ، وأنشد :

واللهِ لو كنتَ لِهَذَا خالِصًا لكنتَ عَبْدًا يأكلُ الأبَارِصَا[٦]

* * *

وقال عبدُ الله بن عمر بن الخطاب حين هَجَاهُم بعضُ القرشيِّين بمحَالفة عدىٍّ لبنى بُكير[٧] بن عبد ياليل ، وكانوا أربعة إخوة قد شهدوا بَدْرًا وكانوا بُرْصًا ، فقال عبدُ الله :

---

(١) شاعر عباسى ، ذكره ابن المعتز وأورد له بعض شعره فى طبقاته صفحات ٢٤٨ — ٢٥٠

(٢) أحد أئمة الأدب واللغة ، من أهل البصرة ، وهو من ثقات اللغويين ، قال ابن الأنبارى كان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة عنى أبا زيد ، وهو حفيد ثابت بن زيد الأنصارى أحد جماع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من يعنيه الجاحظ بقوله القارئ الأنصارى ، انظر نزهة الألباء ١٧٣ ، تاريخ بغداد ٧٧/٩ ، المحبر ٢٨٦ .

(٣) فى الأصل : وساماً ، وهى خطأ .

(٤) قال فى النوادر ٢٢٧ : كل هذا مضاف إلى اسم واحد لأنه معروف .

(٥) فى الأصل : أرض وأيارض وهى تحريف .

(٦) البيت فى الحيوان ٣٠٠/٤ ولم يرد فى نوادر أبى زيد .

(٧) فى الأصل لبنى بكر ، والصحيح أنهم كما أثبت ، والإخوة الأربعة الذين شهدوا بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هم : خالد وإياس وعاقل وعامر بنو بكير بن عبد ياليل بن ناشب الليثيون ، وأمهم عفراء بنت عبيد كان لها ثلاثة أبناء آخر من الحارث بن رفاعة هم معاذ ومعوذ وعوف وقد شهدوا أيضاً بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظر المحبر ٣٩٩ ، المعارف ٥٩١ .

أبالأبارصِ تهجُوهُمْ وَتَثْلُبُهُمْ وكلُّهم قَرحُ الوجعاء مِثْفارُ[١]
وأمكم كل مثناتٍ مُجَـــدَّدةٍ وأمُّ غيركم مَقَّاءُ مِذْكَـــارُ[٢]
سائل يستحك والروى بعظاوة[٣] كأنّما أيْرُهُ فى الكفِّ طُومَارُ

* * *

/ قال : وبَهَقُ البرَصِ يَعْرِضُ لخُصَى الخيل وغَراميلها ، وهذا غيرُ الباب الأوّل ، فإذا لم يَعْرِضْ ذلك لها فإن خصُاها وغراميلَها هى المثلُ المضروبُ فى شدة السَّواد ، وكذلك الحميرُ فى هذا المعنى ، قالت ليلى بنت المحلِّقِ[٤] :

لَحَا الإلهُ أبا لَيْلَى بِفَرَّتِهِ يوم النِّسَار وقُنْبَ العَيْرِ جَوّابا

والقنْب هو الخصية[٥] ، هجتْه بشدة السَّواد ، وكذلك قال الربيعُ ابن زِياد الكاملُ ليزيد بن عمرو بن خويلد بن الصَّعِق[٦] ، وفخر بنفسه وبإخوته عمارة وأنَس على يزيد وزُرْعة وعَلَس[٧] :

---

(١) الوجعاء : الدبر ، والمثفار ، الرجل المأبون .
(٢) المثنات : التى تلد الإناث ، والمجددة : القليلة اللبن ، والمقاء : المرضع .
(٣) هكذا فى الأصل ، ولم أستطع تقويمه ، كما لم أعثر عليه فيما بين يدى من مراجع .
(٤) الصحيح أنها سلمى بنت المحلق كما ورد ذلك فى المفضليات ٣٦٦ والنقائض ٢٤٢/١ وهى تهجو بيتها هذا أبا ليلى الطفيل بن مالك وجواباً واسمه مالك بن كعب بن عوف بن عبد الله بن أبى كلاب وسمى جواباً لأنه قال :

لا تسقنى بيديك إن لم تأتنى رقص المطية إننى جواب

وقيل لأنه كان يجوب الآبار يحييها ويتخذها لنفسه ، وكان جواب على رأس بنى عامر ابن صعصعة يوم النسار ، وهو يوم لبنى ضبة على بنى تميم فاستحر القتل ، ففر جواب والطفيل .
(٥) الذى فى المعاجم أن القنب هو جراب قضيب الحيوان ، انظر اللسان والقاموس ، وفى النقائض ٢٤٢/١ قال : القنب غلاف الذكر .
(٦) شاعر فارس من بنى عامر بن صعصعة ، وكان من قوادهم فى يوم ذى نجب ، وهو يوم بينهم وبين بنى يربوع ، انظر النقائض ١٠٧٩ ، معجم الشعراء ٤٩٤ .
(٧) فى الأصل : وعباس ، وقد أصلحتها لتستقيم مع ما ورد فى البيت التالى :

عمارةُ الوهّابُ خيرٌ من عَلَسْ وزُرْعةُ الفَسّاءُ شرٌّ من أَنَسْ
وأنا خيرٌ منك يا قُنْبَ الفَرَسْ

وكان يزيدُ شديدَ السَّواد وكذلك جَوّاب ، وجَوّاب هو الذى ذكره لبيدٌ فقال :

حتى نُحَاكِمهم إلى جوّاب[1]

* * *

ومن البرصان ، عمروٌ الثَّقَفى الذى كان يلقَّبُ جَزَرَه[2] ، وكان يكنَّى أبا عثمان ، وكان سليطاً ذا شهامةٍ وعارضة .

* * *

---

(١) عجز بيت للبيد ، صدره :

قتلوا ابن عروة ثم لطوا دونه

انظر شرح ديوانه ٢٤ ، الحيوان ٥/٧٢ ، اللسان ١/٢٧٧ ، وكان من خبر البيت أن رجلا من بنى جعفر قتل رجلا من بنى أبى بكر بن كلاب يقال إنه المعلق بن جواب ، فأقبلت غنى وكانوا قد قتلوا ابناً لعروة بن جعفر قبل ذلك حتى نزلوا على جواب، فقال جواب لبنى جعفر : قد أصابت غنى منكم دماً وأصبتم منا دماً فبوءوا أحد القتيلين بالآخر ، فقالت بنو جعفر : نحن نعطيك الدم الذى أصبنا من ابنك وخل بيننا وبين ثأرنا من غنى فإنا لا نرضى منهم بدون دية الملوك ، ثم أذنوا بحرب خذلت فيها بنو جعفر ، فارتحلوا من منازلهم حتى نزلوا ببنى الحارث بن كعب فأقاموا فيهم حولا ، عزمت خلالها بنو الحارث أن يحتوروهم بأن يتزوجوا منهم ويزوجوهم ، فلما أحست بذلك بنو جعفر رفضوا هذا العرض ، وارتحلوا قاصدين بنى أبى بكر بن كلاب يريدون جواباً فوجدوه يميح بئراً فانتظروه حتى خرج منها ثم أكرمهم وسألهم عن حاجتهم ، فقالوا : أردنا أن نبوء بحقنا ونرجع إلى قومنا ، فحكم جواب قائلا : ما كان لكم عندى من غائلة أودم فهو لكم ، ودم صاحبكم ابن عروة فهو على أفضل الديات فى مالى ، وما كان لغنى فهو على وبرتم منه ، انظر النقائض ١/٣٤٥ ، ٥٣٥ .

(٢) هكذا فى الأصل وقد ذكره الجاحظ باسم أبى عثمان عمرو بن حرزة ، فى رسالة إلى أبى الفرج بن نجاح ٣٢٨ .

ومن البرصان من ثقيف ، الحكمُ بن صَخْر يكنّى أبا عثمان[١] ، وتزعمُ ثقيفٌ أن الحكم قد بان بشيء لم يكن لأحد قبله ، قالوا : لم يُبْغِض أحدًا قطُّ ولا أبغضه أحدٌ قطُّ .

* * *

ومن البرصان ثم من بنى الأعرَج ، الأسْلَع ، وقد صحب النبيَّ وكان قد رَحَّل له[٢] ، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُرَحِّل له يومًا ، فقال : إنى جُنُبٌ وليس عندى ما أغتسلُ به ، فأنزل الله آية الصَّعِيد[٣] .

---

(١) انظر المرجع السابق فى الصفحة نفسها .

(٢) رحل له : أى جهز له رحله .

(٣) الكلمة غير واضحة فى الأصل ، وصحتها كما أثبت ، وآية الصعيد هى قوله تعالى فى سورة المائدة الآية ٦ : « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » ، انظر كذلك سورة النساء الآية ٤٣ ، وانظر هذا الخبر فى الإصابة الترجمة ١٢١ وقد ذكر ابن حجر فى ختامها أن الحافظ مغلطاى نقل نص ما ذكره الجاحظ فى كتاب البرهان (كذا) والمقصود به البرصان ، نقله فى أول كتاب التيمم فى شرحه للبخارى .